# الحضارات الأفريقية..
# وفكرة الانتشار الحضاري وطرقه في أفريقيا

للدكتورة كوثر عبد الرسول
الأستاذة المساعدة للجغرافيا
كلية البنات الإسلامية

---

من الموضوعات الهامة في دراسات الجغرافيا البشرية والجغرافيا الإجتماعية بالذات هجرات الحضارات وانتشارها ودراسة طرق هذه الهجرات . ذلك أن الهجرة البشرية من مكان إلى مكان — سواء كانت تلك الهجرة تمثل تحرك جماعة من البشر في صورة هجرة جماعية أو فردية ، أو سواء كانت تلك الهجرة تمثل انتقال نماذج من حضارة جماعة إلى جماعة أخرى — أمر معترف به من جميع مصادر البحث في علوم إنسانية عديدة أهمها الجغرافيا والأنثروبولوجيا والاجتماع .

ولا يقتصر دور الهجرة بهذا المفهوم الواسع على أنه أمر معترف به من جانب عدة علوم ، بل إنه بدون الإعتراف به لا يمكن تفسير كثير من التشابه في درجاته المختلفة بين نظم اقتصادية إجتماعية سياسية في عديد من الشعوب ، وتفسير تطور وسائل الإنتاج من الكفاية الذاتية البدائية إلى الزراعة والصناعة الحديثة .

وقد عالج كثير من العلماء — كل في ميدان تخصصه — هجرات الناس والحضارات في العالم القديم والحديث . وفي فترة ما من الزمن اشتد شغف عدد من العلماء بمسألة هجرة الحضارات . وبالغ البعض مبالغة شديدة . ومن

هؤلاء من تعصب لمصر كمركز لانتشار عدد من عناصر الحضارة العليا فى العالم ومن أهمهم اليوت سميث Smith وبرى Perry ومنهم من تعصب لحضارات ما بين النهرين على أنها مركز إشعاع الحضارة العليا فى العالم ، مثل راجلان Ragian وهيليداى Hilliday ومنهم من أخذ عنصرا حضاريا وحاول تطبيقه على العالم بوصفه أنه مصدر الحضارات كلها ، ومن هؤلاء هوكارت Hocart (١) الذى نادى بأن حضارة الملوك هى الأصل الذى استمدت منه حضارات العالم جميع أشكالها — ذلك أن الطبقات المختلفة تحاول دائماً التطلع إلى أعلى وتقليد حضارة أعلى الطبقات ، وهذه هى حضارة الملوك . ولقد بلغ التعصب لمثل هذه النظريات الإنتشارية حدا جعل العلماء التاليين ينفرون تماما من فكرة الإنتشار ويذهبون إلى حد التطرف برفض كل انتشار حضارى وبشرى . وهؤلاء أيضاً مخطئون . فهم قد كادوا أن يجعلوا العـــالم حضارات مختلفة منفصلة تماما عن غيرها فى نشأتها وتطورها . وانتهى هذا التضارب فى الآراء إلى الاعتراف مرة أخرى بالانتشار بين معظم الباحثين باستثناء عدد منهم معظمهم فى إنجلترا ، وذلك بسبب سيادة نظرية الوظيفة فى الدراسة الحضارية — وهذه النظرية وإن كانت قد أدت خدمة جليلة من أجل دراسة ناحية هامة من نواحى الحضارة — وهى التركيب الاجتماعى ودراسات القرابة فى المجتمعات إلا أن هذه النظرية لم تولد انجليزية ، بل نشأت فرنسية على يد أميل دوركايم وطورها بولندى هو برونسلاو مالينوفسكى واحتضنها الانجليز بشىء كثير من التعصب والتطوير .

وسبب هذا الإختلاف المذهبى فى مراحله الزمنية المختلفة إلى عصرنا الحديث يعود إلى عدد من الحقائق التى يتشبث كل منهج بإحداها على أنها

---

(١) يراجع لهؤلاء المؤلفين الكتب التالية :

Smith, G. E., 1929. "The Migrations of Early Cultures" Manchester.

Hocart, A. M., 1927. "Kingship" Oxford. And 1936 "Kings and Councillors". Cairo.

العامل الحاسم فى نشأة وتطور الحضارة . وفوق كل هذا فإن هناك مبدأ معترف به هو مبدأ وجود عناصر حضارية متشابهة تنشأ نشأة منفصلة مستقلة عن بعضها فى أقاليم جغرافية متباعدة . وهناك أيضاً مبدأ آخر يقول إن عددا من العناصر الحضارية تنشأ مرة واحدة فى منطقة واحدة ثم تنتشر من مركز نشأتها إلى مناطق جغرافية متقاربة ومتباعدة على حد سواء . وكلا المبدأين معترف به من جانب العديد من العلماء . ويكون الاتفاق على أشده فى تطبيق المبدأ الثانى على عدد من العناصر الحضارية التى دفعت بالعالم دفعا إلى مراحل التطور الكبرى . مثال ذلك أن الزراعة عرفت أولا فى الشرق الأدنى وانتشرت منه إلى بقية أرجاء العالم . وكذلك الصناعة نشأت فى الإقليم الحضارى الذى كونته دول غرب أوربا فى القرنين الماضيين .

وعلى أية حال فإن الإنتشار الحضارى — بعد الدفعة الاولى الفاشلة — قد أصبح له قواعد ثابتة علمية تجعل الباحث يقف كثيراً عندما يرى عنصرين حضاريين متشابهين . فقبل أن يقول كلمته الأخيرة عليه أن يحلل الموقف تحليلا دقيقاً فلا يأخذ فقط بالتشابه الظاهرى بين العنصرين الحضاريين ، بل عليه أن يدرس تركيب ووظيفة مثل هذا العنصر الحضارى بين مجموع النظام الحضارى الذى يعيش فيه ، وأن يحلل دوره فى عالم الفكر الكوزمولوجى والدينى ، أو فى تنظيمات المجتمع الإقتصادية والاجتماعية . وفى هذا المجال نذكر الأستاذ كوبرز Koppers حين يقول محللا فكرة الإنتشار :

We speak of such parallels if we meet identical or similar cultural phenomena in different parts of the world. In any given case, the question whether or not we are faced with true relation will depend on the degree of conformity and the number of parallel traits, i.e., on the "criteria of form and of quantity". Whenever the question is to be answered in the affirmative, this will have to be considered as a proof of diffusion". (٢)

(٢) Koppers, W., 1955. "Diffusion : Transmission and Acceptance" Year book of Anthropology. New York.

ولاشك أن التشابه فى الصورة المتكاملة ليس موجودا فى الطبيعة الحضارية بل أنه نظراً لأن هناك حضارات متفاوتة فى الأسس والجذور والتكيف فإن التشابه لا يكون كاملا فى شكله ولا فى وظيفته ولا فى دوره تماما فى تنظيمات المجتمع الإقتصادية والاجتماعية . إنما يحدث تداخل ويطرأ على العنصر الحضارى كثير من التغيير ويتشكل فى صورة جديدة ، وإن بقيت أصوله غير معروفة وتفسر دائماً فى صورة أسطورية . ومن ثم فإن التوصل إلى دراسة التشابه الحضارى لعدد من العناصر يحتاج إلى وصف دقيق للعناصر الحضارية منفصلة ومتفاعلة ، وتحليل دقيق لوظائف العنصر الحضارى فى حد ذاته وفى تشابكه وترابطه مع غيره من العناصر التى تكون البناء الحضارى . ثم هناك أيضاً ضرورة الالتجاه إلى دراسات أخرى لتأكيد القرار الذى سيتخذه الباحث . ومن أهم هذه الدراسات علم انثروبولوجيا الطبيعية الذى يدرس السلالة والجنس ، ودراسة ماقبل التاريخ وأركيولوجيه ودراسة الوثائق التاريخية إن وجدت والدراسات اللغوية الخ ...

والعادة أن تنتشر العناصر الحضارية من الحضارات العليا إلى الحضارات الأقل تطورا وخاصة فى أفريقيا ولكن هذا لايمنع إطلاقا دخول عناصر حضارية بدائية إلى الحضارات العليا ، وتنتشر الحضارة بطرق مختلفة أهمها هجرة جماعات انسانية من أقليم إلى آخر حاملين معهم عاداتهم وبناهم الحضارى . مثل هذه الهجرات تنتج لأسباب عديدة أهمها التوسع والغزو أو ازدياد السكان والبحث عن مناطق رزق جديدة ، او الاضطهاد والظلم . وتتخذ الهجرة إما شكل موجه بشرية كبيرة وإما تسرب مستمر لجماعات قليلة العدد على مدى زمنى طويل . والهجرة التى تأخذ شكل موجة كبيرة تؤدى إلى عـــدم تجانس حضارى لفترة طويلة . أما التسرب المستمر لجماعات قليلة العدد فيؤدى إلى انسجام العناصر الحضارية الجديدة والقديمة معا . والهجرة الناجمة عن الغزو تؤدى إلى ثنائية فى الحضارة : فيصبح هنـاك حضارة الطبقة الحاكمة وحضارة مجموع الشعب .

وليست الهجرة البشرية هى العامل الوحيد فى هذا المضمار بل إن هناك النقل الحضارى نتيجة التجاور المكانى، أو العلاقات التجارية أو الاشتراك فى المصالح الاقتصادية التى تستلزمها العلاقات المكانية — سواء كان ذلك الاشتراك سلمياً أم نزاعا حربياً .

وعلى الرغم من التسليم بمبدأ الانتشار الحضارى بالنسبة لعدد معين من عناصر الحضارات إلا أنه يمكن القول بصفة عامة أن معظم الحضارات البشرية البدائية والعالية قد تأثرت ببعض بحيث يندر أن يوجد شكل حضارى لم ينقل عن غيره بعض العناصر . ومع ذلك فإن هناك فى الوقت الراهن درجات من التأثر أيضا كما كان فى الماضى . وسبب ذلك متعدد النواحى ، لكن يكفينا أن نقول هنا أن الموقع الجغرافى والأحوال الجغرافية الطبيعية للأقاليم المختلفة قد أدت إلى تغاير مدى التأثر والتأثير . فمناطق العزلة الجغرافية هى أقل المناطق الحضارية اختلاطاً وأكثرها محافظة ، فى حين أن المناطق التى تقع على الطرق الهامة التى رسمتها الطبيعة ، والتى استغلها الانسان فى تحركاته كجموع مهاجرة ، أو فى اتخاذها كطرق اتصال وتجارة ، قد أصبحت أكثر المناطق الحضارية تعقيداً فى التركيب وأقلها جموداً . وهكذا تتميز مناطق الاختلاط والاحتكاك بمرونة العناصر الحضارية وقابلية المجموع الحضارى لاستيعاب مظاهر حضارية جديدة .

## طرق الهجرات فى أفريقيا

وأفريقيا تماثل آسيا فى أنهما القارتان اللتان تتميزان بظهور الفوارق الحضارية ظهوراً واضحا . وربما فاقت أفريقيا آسيا فى هذا المضمار . وسبب ذلك راجع الى الطبيعة الجغرافية للقارة من حيث وجود عدد كبير من مناطق العزلة والانعزال ، والعوائق الطبيعية ضد الاتصال والاحتكاك بين الشعوب ، بل إن نصف القارة جنوب خط الاستواء

يكاد أن ينفصل تماما عن بقية القارة بواسطة الغابات الاستوائية لولا وجود ممر طبيعى هو هضبة البحيرات التى تخلو من الغابات ، وبالتالى كونت طريقا هاما للهجرات التى عمرت جنوب القارة كما أن الصحراء الكبرى تكاد تفصل الهامش الشمالى للقارة عن بقية القارة لولا وجود طريق النيل وطريق الاطلنطى . وفى الوقت الذى ترتبط فيه آسيا بأفريقا عبر برزخ السويس وتكاد تمس شرق القارة فى منطقة خليج عـــدن ، نجد بقية القارة — بعوائقها العديدة تبتعد عن منطقة الاختلاط الحضارى العالى القديم فى الشرق الأدنى .

هـذه الظروف مجتمعة قـد ساعدت عـلى التباين الكبير فى أفريقيا ، وظهور أنواع ونظم من الاقتصاد والبناء الاجتماعى تتراوح بين البدائية الأولية فى نطاق أقاليم الأقزام والبشمن وبين التقدم الذى توجه تكوين الدولة فى وادى النيل الأدنى .

وعلى الرغم من أن دراسة الطرق الأساسية فى أفريقيا مقدمة لابد منها لدراسة انتقال الجماعات والحضارات ، إلا أن ذلك لم يكن ممكنا فى بدايـة الدراسات الحضارية عن أفريقيا . ذلك أن معرفة الطرق تتطلب دراسات جغرافية طبيعية للقارة من ناحية ، ودراسات للآثار التى خلفتها حضارات ما قبل التاريخ ، ودراسة الوثائق التاريخية والتكوين الجنسى واللغوى فى أفريقيا . وكل هذه الدراسات لم تكد تبدأ إلا فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى . ولاشك أن كتابة تاريخ أفريقيا لم يكد يبدأ إلا بعد الحرب العالمية الثانية . ومن ثم فان تقرير الطرق التى سلكتها الجماعات البشرية والحضارات لم يكن ممكنا فى قارة لم يتأخر كشفها الجغرافى فقط ، بل تأخرت فيها الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية إلى فترة حديثة جدا .

وحتى ما تكتبه اليوم عن الطرق الأساسية فى أفريقيا ، مثل طريق النيل أو طريق السفانا ، ليست فى الواقع — وباستثناء طريق النيل — سوى استنتاجات واستقراءات من الخريطة النباتية لأفريقيا ، وتعليلات مستمدة

من واقع الدراسات المرتبطة بالمياه الجوفية فى النطاق الصحراوى فى الوقت الراهن واستنتاج ما كانت عليه فى الماضى ، كذلك توزيعات الغابات الاستوائية فى الوقت الراهن ليست بالصورة التى كانت عليها منذ عشرة آلاف سنة . وما نقوله باستمرار عن اختراق الصحراء لم يتم إلا فى أوائل العهد المسيحى بعد دخول الجمل أفريقيا ليس سوى استنتاج منطقى فقط وهو معرض للتغير إذا ما عرفنا أن هناك فئة من العلماء تقول أن الجمل عرف فى مصر منذ أقدم العصور مثل بترى Petri وشارف Sharff، وكاتون تومسون Caton-Thompson (٣) هذا فضلا عن أن هناك احتمالا فى الماضى لاختراق الصحراء فى مناطق محلية بواسطة الحمير — اذ كانت الآبار أغنى مياها مما هى عليه فى الوقت الراهن (٤).

---

(٣) محمد رياض — كوثر عبد الرسول : الاقتصاد الافريقى : القاهرة ١٩٦٣ .

« على الرغم مما يقال باستمرار عن ان الجمل لم يدخل افريقيا افريقيا الا متأخرا جدا ( حوالى ١٠٠ ق.م) الا ان ابحاث الكثير من علماء الدراسات المصرية القديمة مثل فلندرز بترى ، شارف ، كاتون تومسون ، قد فندوا هذه الاقوال واكدوا ان الجمل كان معروفا فى مصر منذ أقدم العصور وقد سجل وجوده فى كثير من الحالات فى صورة تماثيل صغيرة ولكن لم يسجل على المعابد المصرية . ولسنا ندرى هل كان هناك مانع دينى ضد تسجيل الجمل على المعابد ، ولكن انه كان فى عهد الرعامسة حيوانا شائعا لحمل الاثقال الكبيرة » . ص ١٤٠ .

W. M. F. Petri : "Social Life in Ancient Egypt". P. 139.

A. Scharff : "Das Vorgeschichtliche Graeberfeld von Abusir-el-Meleq". P. 40.

G. Caton-Thompson and Gardner: "The Desert Fayum". P. 88, 119, 128.

(٤) M. Riad : "The divine Kingship of the Shilluk and its Origin." Wien 1959.

"...it is more than certain that the pre-camel migrations took the route of the Nile southwards into the heart of Africa, though Seligman (Egypt and Negro Africa. London 1934. pp. 67-78) may be right in what concerns minor movements of population and trade accross the desert with the help of comparatively more rainfall and higher water sheet of desert wells in the past". P. 254.

فالواقع إذن أن الطرق التى نتكلم عنها ليست سوى صورة منطقية من الاستدلالات الجغرافية . وهى وإن كانت فى حد ذاتها معقولة إلا أنها ليست بالضرورة الطرق التى لابد وأن الهجرات قد عبرتها ، إلا إذا استندنا إلى أدلة دامغة. هذه الأدلة كما قلنا مازالت فى مرحلة التجميع فى صورة الدراسات الحقلية العديدة بين القبائل والدراسات التاريخية التى تتكشف بواسطة الوثائق التى يعثر عليها بين الحين والحين وبواسطة استكمال دراسات ما قبل التاريخ .

وحتى يتم ذلك ، فإن الطرق التى استخلصتها الجغرافيا والتى تأكدت بعض الشىء من جانب العلوم الأخرى ، لا تزال تكون الأساس الذى نبنى عليه احتمالات الهجرات البشرية والحضارية فى أفريقيا. وأهم هذه الطرق هى:

خريطة رقم ( ١ )

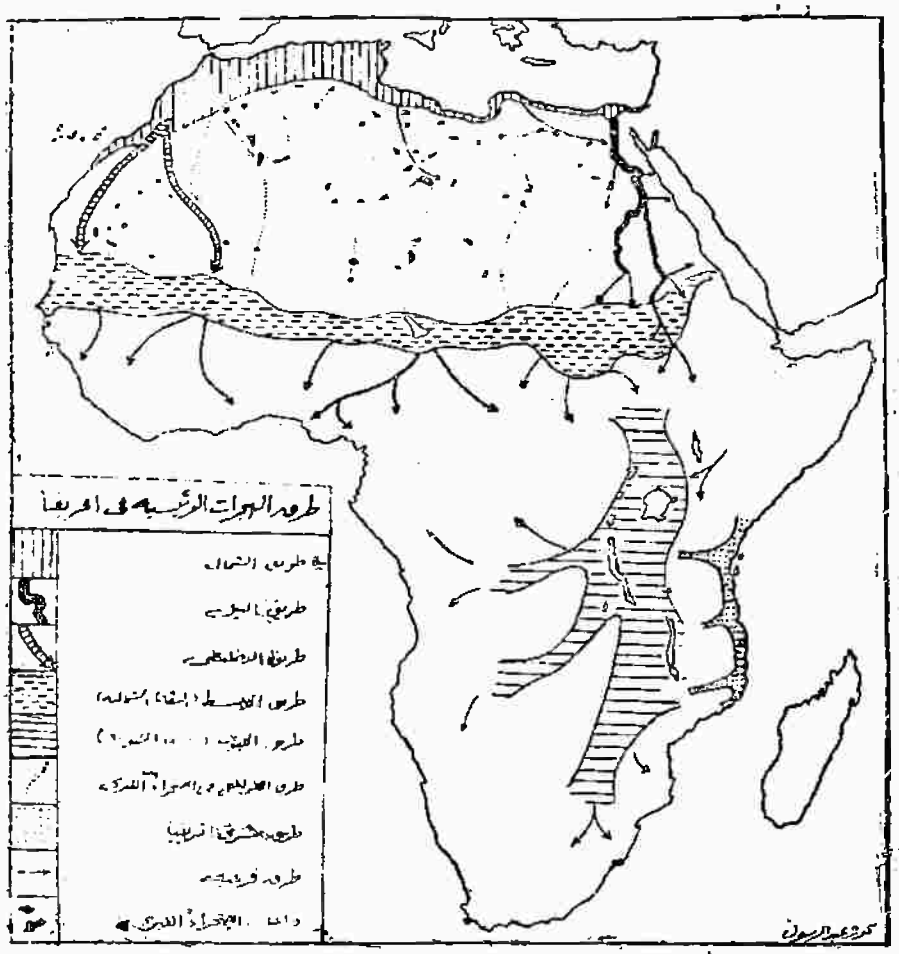

١ — طريق الساحل الجنوبى للبحر المتوسط من سيناء إلى طنجه .

٢ — طريق النيل عبر الصحراء الكبرى من دلتا النيل إلى نطاق السفانا فى أواسط جمهورية السودان .

٣ — طريق الأطلنطى من جنوب المغرب الأقصى حتى وادى السنغال والنيجر الأوسط .

٤ — طريق السفانا الشمالى من سفوح الهضبة الحبشية شرقا إلى سهول سنجامبيا غربا .

٥ — طريق السفانا الجنوبى من وادى النيل الجنوبى عبر هضبة البحيرات إلى جنوب شرق وجنوب غرب القارة .

٦ — طرق عديدة عبر الصحراء الكبرى من الشمال الى الجنوب عبر الواحات العديدة .

٧ — طرق نطاق الساحل الشرقى من زنجبار إلى موزمبيق تتوغل فى الداخل إلى شرق الكنغو وإلى روديسيا الجنوبية .

٨ — طرق من منطقة البحيرات العظمى جنوبا بغرب إلى جنوب الكنغو وساحل أنجولا .

هـذا إلى جانب العديد من الطرق الفرعية التى تتوغل بعيداً عن مسارات الطرق الرئيسية وخاصة طريق البنوى وطريق الفولتا فى غرب أفريقيا ، وطريق شارى إلى أطراف الغابات الاستوائية فى شمال الكنغو ، وطرق الأودية الجبلية فى الهضبة الحبشية .

والطريق الأول وهو طريق البحر المتوسط طريق مأمون سهل وقد سارت فيه الهجرات البشرية والحضارية منذ أقدم الوثائق المكتوبة . كما أنه كانت تشترك فيه المواصلات البحرية إلى جانب البرية . وكان بذلك الواجهة الرئيسية للاختلاط الحضارى فى محيط البحر المتوسط . ففيه اشتركت أولا الحضارات المصرية القديمة والبربرية ، ثم الاغريقية والفينيقية

والرومانية والسامية القديمة والاسلامية . كذلك لانستبعد وصول مؤثرات جنوبية إلى هذا الاقليم عبر طرق النيل والأطلنطى . وللطريق تفرعات جنوبية محدودة إلى مجموعة الواحات الشمالية فى الصحراء الكبرى ، نذكر منها طريق وادى ساوورا أو طريق النخيل من جنوب شرق المغرب إلى واحات تيدكلت ، وطريق طرابلس غدامس ـ مرزوق ، وطريق جغبوب ـ سيوه البحرية ـ البهنسا أو الفيوم والطريق عامة محدود فى الشرق بالشريط الساحلى من غرب الدلتا إلى تونس ، وبعد ذلك يتسع ويتشعب بإتساع مناطق الماء والنبات فى أفريقيا الأطلسية .

أما الطريق الثانى فهو محدد واضح ومرتبط ارتباطاً شديداً بالوادى الضيق للنيل بين رأس الدلتا ومنطقة أسوان ـ دراو . وله فى هذه المنطقة فرعين هامين : الأول بين ثنية قنا وساحل البحر الأحمر ، والثانى بين أسيوط والواحات الخارجة والداخلة ، ولسنا نعرف إذا كان إمتداد الطريق من الخارجة إلى كوبى فى شمال دارفور — وهو المعروف باسم درب الأربعين ـ قديم منذ العهود الفرعونية أم نشأ بعد انتشار العرب المهاجرين فى القرن الثالث عشر فى شمال السودان . وربما كان معروفاً فى العهد الفارسى فى مصر إذ نقرأ عن هلاك قمبيز وجنوده فى الصحراء . ولا ندرى هل كان متجهاً إلى واحة آمون ( سيوه ) أم إلى مملكة نباتا ؟ (٥)

وفيما بين دراو وأسوان يتشعب الطريق الرئيسى للنيل . فهناك شعبة هامة تسير محاذية لثنيات النيل حتى جنوب دنقله عند التقائه بوادى الملك ووادى مقدم ويتجه وادى الملك إلى الجنوب الغربى حتى شمال دارفور ، ويؤدى وادى المقدم إلى شمال كردفان ، وكلا هما ينتهيان بهذا الشكل فى نطاق السفانا — أى الطريق الرابع — أما الشعبة الثانية فغالباً ما تستخدم وادى

(٥) Bovier-Lapierpe & H. Gauthier, & P. Jouguet, 1932. "Précis de l'Histoire d'Egypte". Le Caire. P. 213.
أيضا . Breasted, J. H., 1912. "History of Egypt". London. P. 383.

قبقبة إلى ثنية النيل عند أبو حمد ، أو إلى بربر ومنها إلى البحر الأحمر أو ارتريا أو شمال أثيوبيا أو إلى الجزيرة . وهكذا فشعبة الطريق النيلى من أسوان إلى الدبة شعبة هامة لأنها تنتهى إلى بدايات طريق السفانا العظيم . أما الشعبة الشرقية بين دراو وبربر فتنتهى إلى الجزيرة وشرق السودان وأثيوبيا فقط على الوجه الأغلب . وأخيراً فهناك من منطقة إدفو — أسوان طرق محلية عديدة الى الشرق إلى البحر الأحمر . وربما كانت هناك طرق أخرى غرباً إلى الواحة الخارجة وخاصة من منطقة إدفو .

وطريق النيل على هذا النحو ضيق فيما بين الدلتا وأسوان ، ويتحدد بواسطة وادى النيل لأنه هنا يخترق نطاقا شديد الجفاف من الصحراء الكبرى . واستمراره الجنوبى بين أسوان والدبه استمرار طبيعى لأنه يقطع أيضا الصحراء الجافة . أما طريق دراو — قبقبه — بربر ، فهو وإن كان صعباً من حيث موارد المياه حتى بالنسبة لقوافل الإبل ، إلا أنه كان معروفا منذ عصور سحيقة . فقد استخدم كطريق أساسى للوصول إلى مناجم الذهب والمعدن فى الصحراء الشرقية والصحراء النوبية — ويبدو أن آباره كانت أكثر ماءا مما هى الآن لأن الحمير كانت تمثل حيوان النقل الأساسى فى المنطقة — مالم يكن الجمل قد ظهر ايضاً .

والطريق الثالث هو طريق الأطلنطى ، ولاشك أنه قد ساهم بشدة فى نقل الهجرات والحضارات من شمال غرب أفريقيا إلى غرب أفريقيا — وعلى الرغم من أنه لا توجد مجارى نهرية فيه — مثل طريق النيل — إلا أن موريتانيا مليئة بالآبار الغنية لدرجة أن عددا من قبائل موريتانيا من العرب والبربر ، مثل التارارزا وأولاد دليم والرقيبات يقتنون الأبقار ويرعونها متجولين فى هذه الآفاق الصحراوية . ولاشك أن كثرة الأبقار والخيل تعطى فكرة جيدة عن مدى الأمان الذى يمكن أن تشعر به الهجرات البشرية من وادى دراع الى سنغال — هذا إذا طرحنا من حسابنا عدم الأمان المرتبط بكثرة

العصابات فى الاقليم ، وهى العصابات التى عانت منها فرنسا الشىء الكثير . فهنا لايمكن حصر العصابات فى مناطق الواحات أو موارد الماء القليلة كما فى الصحراء الليبية مثلا ، بل هنا تتعدد وتنتشر موارد المياه وتتوزع بكثرة . ولاشك أن غنى موريتانيا بمصادر الماء قد جعلها محط أطماع القبائل العربية أكثر من منطقة الحجارا — أو تيستى — ومن ثم نلحظ أن العنصر العربى وهو الذى كان يعد فى تلك المناطق إبان الفتوح فى أفريقيا العنصر الأقوى، ومازال له هذه الصفة حتى الآن . قد اختار وتركز فى موريتانيا بدرجة لانظير لها فى الصحراء الكبرى ، فاذا اختار العنصر ذو السيادة الثقافية والسياسية هذه المنطقة ، فلا شك أنه بنى ذلك على مدى ماتعطيه له من أمان اقتصادى وإبقاء على التنظيم القبلى التقليدى .

وينتهى هذا الطريق إلى السنغال وإلى أواسط النيجر . وقد كان طريق النيجر الأوسط من الأهمية بحيث اختاره القائد المغربى دويدار عام ١٥٩٠ طريقا ليسير فيه جيشه الى تمبكتو وجاو ليقضى على مملكة سنغاى[٦] . ويمر هذا الطريق من وادى دراع جنوبا إلى أقليم الحنك والجوف الى تاودينى أروان وأخيراً إلى تمبكتو . وكلا الشعبتين لطريق الاطلنطى تنتهى الى الطرف الغربى لطريق السفانا العظيم ، وبذلك يتماثلان مع طريق النيل .

الطريق الرابع هو طريق السفانا العظيم ، وهو يسير محاذيا للنطاق العشبى بعرض القارة من الحبشة إلى الأطلنطى . ويكاد ينصفه منطقة تشاد . هذا الطريق مازال يستخدمه الحجاج من السنغال الى سواكن وبور سودان ثم عبر البحر الأحمر الى جدة ومكة . ويعد هذا الطريق — حسب الدراسات الحضارية الجنبية الحالية — من الطرق الهامة جداً فى أفريقيا لأنه يتلقى فى طرفيه الشرقى والغربى الهجرات المنتظمة البشرية والحضارية عبر الصحراء الكبرى ، ليلتقى بها فى نطاق عريض ضخم يغطى كل ما فى أفريقيا جنوب الصحراء .

---

(٦) راجع Westermann, D., 1952. "Geschichte Afrikas". Koln, P. 101.

ونظراً لضخامة الطريق وتشعب الطرق الفرعية منه فقد كان به أكثر من مركز ثانوى لانتشار الناس والحضارات . هذه المراكز الثانوية كان من أضخمها وأهمها دارفور ، تشاد ، السنغال ، إلى جانب مراكز أخرى فى شمال كردفان ، وفى واداى ومنطقة الهوسا ، والنيجر الأوسط . وفى كل هذه المراكز نجد اختلاطاً هائلا من السلالات والحضارات ، وأيضاً من الدول السياسية خلال العصور الوسطى . ومن هذه المراكز انتشرت الطرق الفرعية جنوباً . من دارفور جنوباً إلى بحر الغزال ودارفرتيت إلى أطراف الغابات الاستوائية . ومن تشاد مع نهرى شارى واللجونى جنوباً فى باغرمى وبنوى الأعلى وأدماوا . ومن السنغال جنوباً إلى فوتاجالون ومن شمال كردفان إلى النيل الأبيض والجزيرة . ومن الجزيرة مع النيل الأزرق وديسا إلى كافا . ومن النيل الأبيض إلى السوبات وبحر الجبل إلى هضبة البحيرات ومن نطاق الهوسا إلى وسط وجنوب نيجيريا . ومن النيجر الأوسط إلى حوض الفولتا .

وعلى طول هذا الطريق هاجر الداجو وأحلافهم من الشرق إلى دارفور ومنها إلى شمال بحر العرب ودار سيلا . وقبلهم هاجرت العناصر الحضارية التى شكلت النظام الدينى السياسى للنيليين فى جنوب السودان وأوغندا . وبعد الداجو هاجر التنجور بين دارفور وتشاد ثم العرب المسلمين الذين عربوا تماماً كردفان وجنوب دارفور وامتدوا إلى واداى وبرنو . وعلى الطريق أيضاً هاجر الفولانى من فوتاتورو فى السنغال شرقا إلى ماسينا وشمال نيجيريا وهضبة أدماوا فى الكمرون ، وجنوباً إلى فوتاجالون .

وعبر هذا الطريق أيضا هاجرت عناصر حضارية لتعطى للجوكون فى أعالى النيوى واليوربا فى جنوب غرب نيجيريا الأكان فى وسط جمهورية غانا تلك المميزات المقدسة للزعامة السياسية وتلك الاتجاهات الفنية التى تميز صناعات صب النحاس وتشكيل الذهب والعاج فى قبائل البنين واليوربا

والأشانتى ، وتنشر زراعة الدخن وصناعة النسيج على الأنوال الضيقة والعريضة التى تميز أفريقيا الغربية[٧] .

أما الطريق الخامس فهو طريق السفانا الجنوبية . ويبدأ من أعالى النيل فى جنوب السودان إلى منطقة البحيرات العظمى متجنبا الحدود الشرقية لغابات الكنغو ومناطق شبه الجفاف حول بحيرة رودولف وشمال كينيا حيث يعيش البوران — أحد الفروع الهامة للجالا الرعاة . وعلى طول هذا الجزء من الطريق تكونت — كما فى رأى معظم الانثروبولوجيين — شعب البانتو الذى عمر أفريقيا جنوب خط الاستواء . وكذلك يتشابه فيه النظام السياسى للحكم سواء كان ذلك عند البانتو فى البحيرات العظمى أو غيرهم من الشعوب مثل تنظيمات التوسى والهيما السياسية حول منطقة كيفو .

وإلى الجنوب من منطقة البحيرات تتشعب الطرق ، منها ما يصل إلى الشاطىء الشرقى لأفريقيا ليجلب عدداً من العناصر الحضارية — وربما المجموعات البشرية — من آسيا . وهو الذى عبرنا عنه بالطريق السابع . وطرق أخرى تتجه غرباً إلى المحيط الأطلنطى بعد أن تتجنب نطاق الغابات الإستوائية . وعلى طول هذا الطريق تكونت الممالك المقدسة التى تتشابه كثيراً مع مثيلاتها فى منطقة البحيرات[٨] . ومن أمثلة الممالك المقدسة هذه مملكة الباكوبا عند التقاء نهر كساى برافده زانكورا . وهذا هو ما أسميناه بالطريق الثامن . وهناك امتداد جنوبى عبر نطاق السفانا إلى روديسيا والترنسفال . ولا شك أن مجموعة البشمن والهوتنتوت قد عبرت من شرق أفريقيا على طول الطريق الخامس هذا حتى وصلت الى أوطانها الحالية تحت التأثير والضغط الناجمين عن توسع البانتو .

---

(٧) راجع فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم رياض ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ .

(٨) راجع رياض ١٩٥٩،
وراجع أيضا J. P. Grazzolara, 1950-51-53. "The Lwoo" Verona.

هذه هى أهم الطرق التى تتمشى مع المنطق الجغرافى وتسندها فى أحيان الدراسات الانثروبولوجية وغيرها من العلوم التى سبق ذكرها . وإذا كنا نذكرها فى الوقت الحاضر ونحن غير متأكدين تماما ، فمن ثم لا نعجب أن الرواد الأول الذين تكلموا عن الحضارات فى أفريقيا قد أخطأوا أو جعلوا موجات الحضارة تسير حيث كاد السير يستحيل .

## مراحل دراسة الحضارات الأفريقية

وقد مرت دراسة الحضارة فى أفريقيا بعدد من المراحل بعضها قضى عليه تماما والآخر ما زال مجالا للأخذ والرد . وعلينا أن نلاحظ من البداية أن معظم العلماء الذين عالجوا الموضوع الحضارى فى أفريقيا كانوا من الألمان . ذلك أن معظم الإنجليز حينما ساهموا بالدراسات الانثروبولوجية فى أفريقيا كانت فكرة المنهج الوظيفى قد سيطرت عليهم ، وبالتالى لم يعن انثروبولوجى انجليزى معاصر بدراسة الحضارات الأفريقية ككل ، انما ركزوا جهودهم فى الدراسات التحليلية لعدد من الجماعات الأفريقية وعن طريق منهج محدود يجعل الكثير منهم لا يهتم بالدراسات الحضارية المتكاملة بما فيها أعماقها التاريخية . كذلك انشغل الاثنولوجيين الفرنسيين فى أفريقيا بعدد من الدراسات التى برعوا فيها ، وخاصة الدراسات المرتبطة بالعقيدة والديانة . أما الألمان فقد درسوا موضوع الحضارة المادية بما فيه من نظم اقتصادية ومناهج بناء المساكن وحرف صنع الأدوات والأسلحة والملابس والتخزين وما إلى ذلك إلى جانب الدراسات الحضارية الأخرى كنظم السن والزواج والدين والسياسة الخ . . . ومن ثم اكتملت لدى الألمان صور أوضح عن الحضارات الأفريقية ككل متكامل . ونحن لا نكاد نشك فى أن ذلك الدافع الذى جعل الألمان يقفون هذا الموقف بالنسبة للدراسات الانثربولوجية راجع إلى أن نشأة الانثربولوجيا الأولى قد اشتقت من عدد من الدراسات الجغرافية الألمانية والجغرافيين الألمان الذين تخصصوا

بشدة وعمق فى الجغرافيا الاجتماعية ، نذكر من هؤلاء الأستاذين « راتزل » Ratzel و « هان » Hahn . وإن كان راتزل قد اشتد فى فكرة الحتمية إلا أن هان كان له الفضل فى تحطيم فكرة حتمية تتابع الجمع — الرعى — الزراعة كنظم اقتصاد لمراحل حضارية متتابعة . على أية حال فإن ارتباط الانثربولوجيا الألمانية المبدئى بالجغرافيا قد أعطى ذلك العلم الجديد عند الألمان الدافع للبحث عن صور شاملة للحضارات المختلفة ودراسة توزيعات العناصر الحضارية ومحاولة تقصى أسباب التوزيع . هذا الإتجاه قد دفع بعدد من الأنثربولوجيين الألمان فى البداية إلى فكرة الأقاليم الحضارية والدوائر الحضارية . ثم عدل الكثير من الألمان عن هذه النظرية وإن ظلوا يدرسون أعداداً كبيرة من الظاهرات الحضارية مما لا يدرسها الانثربولوجى الإنجليزى وعدد من العلماء الأمريكيين .

أما المراحل التى مرت بها الدراسات الحضارية فى أفريقيا فهى كما يلى :

١ - المرحلة الآسيوية ، وفيها افترض أن الحضارات الأفريقية قد استمدت من جنوب شرق آسيا وأوشينيا ، فى صورة هجرات واسعة . وأوضح ممثلى هذه النظرية هما ليوفروبنيوس وبرنارت أنكرمان . ولم يعد أحد يؤيد هذه النظرية إلا فيما اختص بمدغشقر .

٢ — المرحلة الحامية . وقد بدأها سليجمان وأكد فيها أن عدداً من العناصر الحضارية فى أفريقيا ترجع إلى العنصر السلالى الحضارى الحامى . وما زال هناك أخذ ورد فيما قاله سليجمان حتى الآن .

٣ — المرحلة السودانية : وهى التى بدأها فيلى شيلده وطورها باومان وأكدا فيها الأصل السودانى لعدد من العناصر الحضارية المنتشرة فى أفريقيا . وهذه الفكرة أيضاً مجال للأخذ والرد بين المؤيدين وغيرهم .

٤ — وفيما بين هذه المراحل كلها كانت هناك نظرية الأصل المصرى القديم لعدد من العناصر المنتشرة فى أفريقيا . هذه النظرية لا تمثل مرحلة قائمة بذاتها ولكنها نظرية شاعت خلال هذه المراحل الثلاثة وأكدها كثير

من الكتاب فى دراساتهم المختلفة — حتى سليجمان وباومان لم يسلما من التأثر بها .

وأياً كانت المرحلة فإن العلماء المختلفين قد اتفقوا على فكرة واحدة : إن حضارات أفريقيا قد تعرضت لتأثير الهجرات البشرية والحضارية ، سواء كان ذلك من الداخل أو من الخارج . وفيما يلى نعرض لهذه المراحل الهامة فى الدراسات الأفريقية .

## النظرية الآسيوية

### ليوفروبنيوس (٩) Leo Frobenius

كان ليوفروبنيوس أقدم العلماء الذين حاولوا دراسة الحضارات الأفريقية وتقسيمها منهجياً إلى مجموعة من الحضارات ذات الصفات المتشابهة ولم يكن فروبنيوس أقدم الدارسين للحضارات الأفريقية فقط ولكنه كان أكثرهم كتابة عن أفريقيا ودراسة لمشكلاتها من واقع أبحاثه الحقلية العديدة التى بدأها مبكراً فى الكنغو فى الربع الأخير من القرن الماضى وترتب على دراساته العديدة أن غير وبدل فى وجهة نظره عن الحضارات الأفريقية عدة مرات ، مما جعل دراسته تكاد تكون دراسة لتطور المعرفة عن الحضارات الأفريقية . ويمكننا أن نلخص آراءه العديدة على النحو التالى :

فى سنة ١٨٩٧ انتهى فروبنيوس إلى أن أفريقيا قد استمدت حضاراتها من الحضارات التى توجد فى أوشينيا وجنوب آسيا الشرقى ولهذا فإنه يسمى الحضارة الأفريقية باسم الحضارة الأفريقية الغربية لأنها قد هاجرت إلى

---

(٩) انظر فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم فروبنيوس أهم مؤلفاته .

غرب أفريقيا تحت تأثير موجات بشرية وحضارية أحدث فى شرق أفريقيا .

ولكنه سنة ١٨٩٨ يعود فينشر بحثاً عن ، أصل الحضارات الأفريقية
"Der Ursprung der Afrikanischen Kulturen"

وفى هذا البحث يرى أن هناك أربع حضارات فى أفريقيا هى :

١ — الحضارة الزنجية . ٢ — الحضارة الزنجية الملايوية .

٣ — الحضارة الآسيوية . ٤ — الحضارة الأفريقية .

وقال إن الحضارة الزنجية الموجودة فى أفريقيا مشتقة أصلا من الحضارة القديمة التى توجد فى غينيا الجديدة وجنوب شرق آسيا وأوشينيا . وقد وفدت إليها عناصر هذه الحضارة قديماً جداً . أما الحضارة الزنجية الملايوية وهى التى يعود فروبنيوس فيطلق عليها اسم الحضارة الأفريقية الغربية فمن المحتمل أن تكون قد نشأت فى جنوب شرق آسيا ثم انتشرت عرضاً إلى أفريقيا ولكن بعد أن ثبتت الحضارة الزنجية أقدامها فى أفريقيا .

وفيما يختص بالحضارة الآسيوية فإن فروبنيوس وإن كان فى أحد المرات قد أدمجها ككل مع حضارات آسيا سواء كانت الحضارة البابلية أو الهندية أو الصينية إلا أنه يعود فيقسم الحضارات الآسيوية إلى قسمين : الحضارة الآسيوية الأصلية والحضارة الهندية — الصينية
"Die Eigentlich Asiatische und Die Indisch-Chinesische".

ويقول إن الحضارة الآسيوية التى توجد فى أفريقيا يقصد بها الحضارة الآسيوية الأصلية التى توجد فى جنوب غرب وغرب آسيا وليست الحضارة الهندية أو الصينية .

أما الحضارة الأخيرة وهى التى أطلق عليها فروبنيوس اسم الحضارة الأفريقية فيقول إنها نشأت فى أفريقيا على أثر الاختلاط والتشابك بين الحضارات الزنجية والزنجية — الملايوية والآسيوية .

ولعل أهم ما يميز آراء فروبنيوس المبكرة هذه أنه ميز بين الحضارتين الزنجية والزنجية — الملايووية على أنهما حضارتا أخشاب فى حين أن الحضارتين الآسيوية والأفريقية حضارتا جلود . وبعبارة أخرى النوعين الأوليين من الحضارات الأفريقية تعيشان فى مناطق الغابات ؛ أو السفانا الشجرية ويتكون اقتصادهما الأساسى من الزراعة ، على حين أن النوعين الآخرين تعيشان فى مناطق الرعى الطبيعية فى أفريقيا سواء كان ذلك شمال شرق القارة أو شمالها أو نطاقات السفانا الرعوية .

وأخيراً فى الفترة ما بين أعوام ١٩٢١ و١٩٢٩ يتابع فروبنيوس أبحاثه ويعدل من آراءه عن الحضارة فى أفريقيـــا ، وتكتمل صورة ذلك فى أطلسه الأفريقى . Atlas Africanus وفى هذا يرى فروبنيوس أن هنـاك حضارتين قديمتين Urkulturen هما الحضارة الأثيوبية والحضارة الحامية. وتفرعت عنهما أربع حضارات فرعية تاريخية هى :

١ - الارترية الشمالية .

٢ — الارترية الجنوبية .

٣ — السرتية ( نسبة إلى خليج سرت ) .

٤ - الأطلنطية .

وفى هذا التعديل الجديد نجد أن فروبنيوس يدمج ما سبق أن ذكره عام ١٨٩٨ عن الحضارتين الزنجية وغرب افريقيا فى الحضارة الاثيوبية ، ويرى فروبنيوس أن الحضارة الارترية الشمالية تظهر بوضوح فى أثيوبيا وشمال افريقيا أما الحضارة الارترية الجنوبيـة فتتركز فى نطاق السفانا فى جنوب القارة وخاصة فى روديسيا حول حضارة مونوموتابا ومركزها زمبابوى . وعلى الرغم من انفصال موقع الحضارتين جغرافيـــاً ، ووجود فاصل من حضارات أخرى فيما بينهما . مما يجعلنا نتشكك فى آراء

فروبنيوس ، إلا أنه يؤكد أن الحضارتين أصلا حضارة واحدة يسميها الحضارة الإرترية الوسطى قبل أن تتفرع إلى فرعيها الشمالى والجنوبى .

أما الحضارة السرتية فتمثل عند فروبنيوس عناصر من الحضارة القديمة للبحر المتوسط دخلتها واندمجت فيها مؤثرات حضارية من الشرق الأدنى . ثم تسربت هذه الحضارة جنوباً إلى السودان الغربى ، وغرب أفريقيا ، فأصبح أكبر مركز لوجودها هو تلك المنطقة الممتدة من مصب السنغال إلى بحيرة تشاد وجنوباً إلى دوالا وجبل الكمرون .

وأخيراً تنتشر الحضارة الاطلنطية — وهى أيضاً مكونات من عناصر حضارة البحر المتوسط القديمة — فى المنطقة الساحلية بين مصب السنغال ومصب النيجر .

هذه خلاصة لآراء فروبنيوس التى لا يقبلها سوى عدد من تلامذته نذكر منهم وعلى رأسهم الأستاذ A. Jensen (١٠) .

**برنارت أنكرمان** B. Ankermann

ويعد أنكرمان فى البداية مرتبطا ومتأثراً بآراء فروبنيوس ، ولكنه يعتمد إعتماداً كبيراً على دراسات وتحليلات جرايبنر F. Graebner لحضارات البحار الجنوبية مما يؤدى به إلى الاعتقاد بوجود ست حضارات أولية فى أفريقيا هى :

---

(١٠) تخصص الاستاذ ينسن فى الدراسات الحضارية الافريقية ونذكر من أهم مؤلفاته ما يلى :

Jensen, A., 1931-32. "Die Staatlich Organisation und historischen Uberlieferungen der Barotse am Oberen Zambesi" Wurttemburg — 1936 "Im Land des Gada" Stuttgart. — 1959 "Altvolker Sud-Athiopiens" Stuttgart.

١ — الحضارة الزنجية التى تتفق مع أقدم حضارات أستراليا .

٢ — الحضارة الغربية لأفريقيا التى تتفق مع الحضارة التى أطلق عليها جرايبنر اسم حضارة ماقبل الملايو وشرق بابوا. ولكنها فى أفريقيا تختلف لوجود عناصر أحدث أخرى يحتمل أن تكون أصلا من أندونسيا .

٣ — حضارة تشابه تلك التى أسماها جرايبنر حضارة بابوا الغربية .

٤ — حضارة السودان الغربى وتتشابه مع حضارات الهند البعيدة ( بورما — سيام ) ولكن أنكرمان لا يعرف الأصل الذى نشأت عنه تلك الحضارة السودانية .

٥ — الحضارة الحامية أو السامية القديمـــة فى السودان وشرق وجنوب أفريقيا .

٦ — الحضارة السامية أو العربية وتظهر فى نطاقات الحضارة الحامية وإن كانت أحدث .

ويرى أنكرمان أن الحضارة الزنجية هى بقايا الحضارة الأصلية للسلالات السوداء عامة قبل أن تهاجر شعوبها إلى أفريقيا غربا وجنوب شرق آسيا وأوشينيا شرقا .

أما الحضارة الغربية الأفريقية فلا يعنى أصلا أنها تتوطن فى الأقليم الغربى الجغرافى من أفريقيا بل يسميها كذلك لأنها الانتشار الغربى للحضارة الأفريقية التى تظهر فى جزيرة غينيا الجديدة . ولهذا فإن منطقة دخول هذا النوع الحضارى كان أولا مدغشقر ثم منطقة مصب الزمبيزى . ويقول إن

---

(١١) انظر فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم انكرمان اهم ما الفه خاصا بأفريقيا .

الإتصال ظل مستمراً فترة طويلة عبر مدغشقر ثم انقطع إتصال مدغشقر بالساحل الأفريقى المقابل وإن ظل اتصالها فترة أخرى بجزائر الهند الشرقية والملايو . ثم جاءت هجرات الجماعات حاملة الحضارة الجديدة الحامية من مركز ثانوى لها فى منطقة البحيرات العظمى . وأدى ذلك إلى طرد بقايا السكان حاملى الحضارة الأفريقية الغربية إلى نطاق الغابات غرباً حيث انعزلوا تماما فى تلك الأوطان الجديدة . وهنا يعود أنكرمان فيشير إلى أن هذه الحضارة تتوطن الإقليم الجغرافى الغربى من أفريقيا .

ولكى تتفق تلك الآراء فقد كان لابد على أنكرمان أن يؤكد أن منطقة شرق أفريقيا ومنطقة تنجانيقا على وجه الخصوص كانت عبارة عن المركز الخطير الذى تداخلت فيه الحضارات والموجات البشرية سواء تلك القادمة من الشرق عبر المحيط الهندى أو تلك القادمة من الشمال . وهو لهذا يجد بقايا عناصر حضارية تمتد إلى أصل الحضارات الزنجية والغربية الافريقية والحامية إلى جانب خليط من هذه الحضارات مع عناصر حضارية سامية عربية فى منطقة ساحل شرق أفريقيا .

ويؤكد أنكرمان أن أقليم أثيوبيا الجغرافى هو أقل أجزاء أفريقيا أفريقية ومع ذلك فلم ينج من تأثيرات الاختلاط والتشابك نتيجة لوجود جيوب زنجية فيه . أما أقليم السودان الطبيعى فيرى فيه أنكرمان مشكلة المشاكل . فبين أعالى النيل وأعالى النيجر يعتقد أنكرمان بوجود حضارة متواحدة قديمة هى ما يسميها الحضارة السودانية القديمة . وعلى الرغم من تشابهها العام إلا أن توزيعها الجغرافى الشاسع قد أدى إلى وجود إختلافات نتيجة العلاقات المكانية . ومن ثم ظهرت ارتباطات حضارية كبيرة مع مصر وبدرجة أقل وفى تاريخ أحدث مع الهند . ثم خضعت هذه الحضارة بعد ذلك للحضارة الإسلامية وعديد من عناصر الحضارة فى شمال أفريقيا وفى آسيا . وقد وفدت تلك العناصر الحضارية إما عن طريق النوبة

وكردفان ودارفور إلى تشاد وإما عبر دروب الصحراء الكبرى العديدة التى تصل البحر المتوسط بالسودان الغربى .

أما البانتو فيعتبرهم أنكرمان اما أنهم ممثلين للحضارة الغربية الأفريقية أو حضارة الحاميين فى شرق وجنوب أفريقيا . ويقول : إن حضارات البانتو تماثل حضارات زنوج السودان . فقد تأثرت بالاختلاط فيما بينها ، ثم تأثرت بالاختلاط مع عناصر الحضارة الآسيوية لدرجة أنها قد تحولت وتبدلت بإضافة عناصر جديدة لدرجة لا نستطيع معها أن نشاهد لها شبيها فى أفريقيا . هذا الحل الذى يجده أنكرمان لحضارة البانتو يجعل من مشكلة البانتو الحضارية معضلة غير قابلة للحل .

وإلى جانب هذه الآراء يرى أنكرمان أن الأقزام والبشمن سلالة واحدة وأن الهوتنتوت هم سلالة خليطة بين البشمن والحاميين أو الساميين القدماء ، وأن هذا الاختلاط قد حدث فى المنطقة بين نهرى الزمبيزى واللمبوبو أو على الأرجح إلى الشمال قليلا .

وآراء أنكرمان هذه وإن لم يأخذ بها أحد سواه إلا أنها عاشت فى صورة معدلة ومطورة فى آراء تلميذه الأستاذ باومان كما سيجىء ذكره فيما بعد . ويكاد يتفق معظم الباحثين على أن آراء باومان بالنسبة للحضارات الأفريقية آراء مقبولة ومن ثم فإن بعض الفضل فى نجاح باومان لابد وأن يعود إلى الأستاذ أنكرمان .

### فلهلم شميت (١٢) W. Schmidt

لم يتكلم شميت عن أفريقيا نتيجة دراسة حقلية ، ذلك أنه كان من النوع

---

(١٢) انظر فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم شميت أهم ما ألفه خاصا بمشكلة الاقزام فى العالم .

من الدارسين الذين يطلق عليهم أساتذة الدراسة النظرية . ومن ثم فإن شميت لم يتخصص فى دراسة الحضارة الافريقية وحدها ، بل كان يعالج الحضارات العالمية ككل . ودوره فى الدراسات الافريقية وإن كان محدوداً بعدد من الموضوعات منها دراساته الكلاسيكية « لأصل فكرة الإله » إلا أن ذلك قد أثر على آرائه الخاصة بالحضارة الأفريقية . وأهم ما قاله شميت فى ذلك نظريته الخاصة بالأقزام . فقد قال إن الأقزام فى أفريقيا ( وهو يدرج تحت مصطلح الأقزام كل من أقزام الكنغو وشعب البشمن فى جنوب غرب أفريقيا ) يتحدون فى الأصل والنشأة مع أقزام أوشينيا وجنوب شرق آسيا . وهذا القول إن كان ينطبق على أقزام الكنغو وأقزام الشرق إلا أنه لا ينطبق على البشمن إطلاقا . وتطرق شميت من أبحاثه عن الأصوله السلالية للأقزام إلى القول إن حضارة الأقزام فى الكنغو تمثل الصورة الأصلية للحضارات الأولى للإنسان . أما أقزام آسيا فقد تأثروا بعدد من العناصر الحضارية أثناء هجرتهم من موطنهم الأصلى فى الكنغو إلى أوطانهم الحالية ، وكذلك تأثر البشمن بعناصر غريبة أثناء تحركهم جنوبا .

وعلى الرغم من أن أحداً لا يقبل آراء شميت فى الوقت الحاضر ، إلا أنه نشر كلامه هذا عام ١٩١٠ ، وبذلك كان أول من بدأ مشكلة الأقزام فى الدراسات الأنثروبولوجية ووجه إليها من العناية ما جعل عدداً من الباحثين أن يتخصصوا فيها نذكر من أهمهم تلميذاه الأستاذ باول شبستا P. Schebesta والأستاذ فان بولك Gaston Van Bulck وعلى هذا فإن شميت ، وإن لم يوفق فى آرائه ، فإنه قد سد النقص الذى تركه كل من فروبنيوس وأنكرمان ، وذلك بتوجيه الأنظار إلى مشكلة الأقزام .

---

(١٣) انظر فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم جونستون اهم مؤلفاته .

هارى جونستون (١٣) H. Johnston

على الرغم من أنه من الصعب القول إن جونستون قد تأثر بآراء كل من فروبنيوس وأنكرمان إلا أن ذلك يبدو أقرب إلى الواقع . ذلك أن أبحاث جونستون محدودة بعض الشيء فى مناطق معينة من آفريقيا ، خاصة شرق أفريقيا وأجزاء من غرب أفريقيا . وفى عام ١٩١٣ قال جونستون إن أقزام الكنغو عبارة عن نوع بدائى من الزنوج قصرت قامتهم ، وأنهم ربما كانوا أقدم عناصر الزنوج التى غزت أفريقيا . كذلك يقول أن البشمن نوع آخر من أشباه الزنوج تدهوراً جسمياً وتخصصوا فى صفاتهم الجسدية التى كسبوها . وقد صادفوا أثناء هجرتهم إلى جنوب افريقيا سكانا أقدم منهم فيهم تقارب طفيف بالقوقازيين هم مايسمون ستراندلوبرز Strandloopers

أما الهوتنتوت فهم عنصر فيه شبه طفيف بالحاميين القوقازيين ، وأن هجرتهم جنوبا قد حدثت قبيل هجرة البانتو وتعميرهم جنوب أفريقيا .

أما العناصر الزنجية فيرى جونستون أنها أقدم سكان القارة ، وأنها كانت تحتل الاقليم العريض بين الصومال والسنغال ويحدها شمالا الصحراء الكبرى وجنوبا حافة غابات الكنغو الاستوائية عند نهر الأوبانجى . فى هذه المساحة الشاسعة يرى جونستون أن الزنوج قد انقسموا فى صفاتهم الجسدية إلى قسمين : زنوج النيليين فى الشرق ، وزنوج الغابة فى الغرب . أما زنوج النيليون فقد تخصصوا فى حياة السفانا المكشوفة المستنقعية فى حين أن زنوج الغابة قد تشعبوا وتكون منهم الأقزام والبشمن .

وقد وقع زنوج النيليين تحت تأثير حضارى كبير من جانب الحاميين الذين يجاورونهم ، وإن كان هذا التأثير قد حدث فى مرحلة متقدمة وبالتالى ساهم فى إعطاء النيليين شكلهم الحضارى الراهن .

ويرى جونستون أن منطقة بحر الغزال الحالية وأعالى النيل تم فيها تكون أسلاف البانتو ، ومنها تحركوا جنوباً عبر منطقة البحيرات العظمى

التى أصبحت بعد ذلك مركزاً هاماً لتكون البانتو وانتشارهم فى بقية القارة.

ويرى جونستون أن أفريقيا تعرضت لعدد من الهجرات البشرية والحضارية من جنوب غرب آسيا ، وأن مصر قد استقبلت معظم هذه الهجرات فى عصور ما قبل التاريخ . وتصبح مصر فى رأيه مركزاً هاما تنتشر منه حضارات آسيا إلى السودان وأفريقيا الزنجية . أما الهجرات الفينيقية والرومانية فقد أثرت على شمال أفريقيا ، فى حين أن الهجرات العربية الاسلامية كانت واسعة النطاق فشملت شمال وشرق القارة. وأخيراً فإن التأثير الحضارى والبشرى القادم من الملايو وأندونيسيا قد تحدد بجزيرة مدغشقر دون الساحل المقابل لها . ويستند جونستون فى افتراضه ذلك إلى أن أثر الملايو لم يصل إلى جزائر كومورو أو زنجبار وبالتالى لم يصل إلى ساحل موزمبيق او شرق أفريقيا .

ونظريات جونستون الخاصة بالأقزام والبشمن لم تعد مقبولة ، ولكن آراؤه فى مجموعها تكون بدايات طيبة للصورة العامة التى أخذتها الدراسات الأفريقية فى مجالى السلالة والحضارة بعد ذلك .

## النظرية الحامية

### سليجمان [١٤] C. Seligman

يعد الأستاذ سليجمان من الباحثين الذين كان لهم دور هام فى الدراسات الحضارية الأفريقية ، بل إنه قد أثر على عدد من الدارسين اللاحقين له نذكر منهم [١٥] T. Irstam ،E. Brauer G. Lidblom [١٦] G. Murray

---

(١٤) انظر فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم سليجمان أهم مؤلفاته .

(١٥) من اهم ما كتبه الاستاذ Irstman فى الموضوعات الافريقية الكتاب التالى :

Irstam, T., 1944. "The king of Ganda. A study in the Institution of sacral Kingship in Africa" Stockholm.

(١٦) للاستاذ لندبلوم كتابات عديدة معظمها يتناول دراسة الحضارة المادية الافريقية . ومن أهم مؤلفاته :

Lindblom, G. 1916. "The Akamba" Upsala.

H. Wieschoff . كما أن آراؤه كان لها صدى فى أبحاث فروبنيوس الحديثة وباومان ومعظم الدارسين الأحدث منه لأفريقيا . هذا الأثر الكبير لأبحاث سليجمان ترجع إلى أنه كان أول من درس وحلل الكثير من الأبحاث الحقلية والكتابات التى كتبها من سبقوه عن أفريقيا ، إلى جانب أبحاثه الخاصة فى أفريقيا ، وخاصة منطقة النيليين فى أعالى النيل .

وقد انتهى سليجمان إلى عدد من الآراء الخاصة بنشأة عدد من سلالات أفريقيا ، كان أهمها أن النيليين هم خليط بين الحاميين وزنوج الغابة ، فى حين أن البانتو نتيجة خليط بين زنوج الغابة والحاميين القدماء . ويحدد سليجمان الصفات الأساسية للزنجى ويصف موطنه على أنه يشمل ماسبق أن ذكره جونستون : من السنغال حتى أعالى النيل ومن الصحراء إلى الحافة الشمالية للغابات الاستوائية . ويحدد الحاميين ويقسمهم بين الشرق والشمال ويدرج الاختلاط بينهم وبين الزنوج والبانتو حتى يصل إلى أنصاف الحاميين فى شرق أفريقيا . وأخيراً يصف الهجرات السامية العربية ودورها الحضارى فى شمال وشرق القارة .

وعلى الرغم من الجهد الذى قام به سليجان فى تصنيفاته السلالية فى أفريقيا إلا أنه من التعسف أن نقول إنه قد قسم أفريقيا إلى سلالات معتمداً على الخصائص الجسدية . بل إننا نرى أثر التقسيمات اللغوية والحضارية تلعب دوراً خطيراً فى أبحاث سليجمان بحيث أننا نرى نتائج مختلفة تماماً لأقسام السلالة والجنس فى أفريقيا عند الباحثين الجدد المتخصصين فى علم الأنثروبولوجيا الطبيعية .

إذن دور سليجمان الحقيقى يكمن فى آرائه عن الحضارات الأفريقية . وهو لم يول كل حضارات أفريقيا من الاهتمام مثلما أولى الحضارة الحامية من دراسة وبحث وتقصى وفلسفة . ومن ثم فإنه يمكننا فى إيجاز أن نقول

إنه لا يذكر سليجمان إلا ويذكر معه نظريته عن الحضارة الحامية القديمة على أنها مصدر الالهام والتطور والتشابه فى الحضارات الزنجية والبانتووية فى بقية القارة . هذا الاتجاه إلى تضخيم الأثر الحامى فى أفريقيا من جانب سليجمان ربما كان رد فعل لاتجاه جونستون إلى تضخيم أثر مصر فى الحضارات الافريقية . وقد قال سليجمان فى ذلك :

"...I hold that many common customs are but expressions of the wide diffusion of old Hamitic blood and ideas". (١٧)

وعلى الرغم من رأى سليجمان الخاص بالأثر الحامى السابق للمصريين وتشككه فى الأصل المصرى لكثير من المظاهر إلا أنه كان دائماً يعود فيقول إن هذه العناصر الحضارية قد انتشرت عن طريق مصر مما يعطى صورة مترددة بين الأصل الحامى والأصل المصرى لكثير من هذه العناصر الحضارية ذات الانتشار الواسع فى أفريقية . مثال ذلك أنه يقول : إن تشابه « عصى الرمى » بين قبائل الأنجسنا ودارفنج ومصر واضحة جداً وربما كان الاحتكاك السبب الرئيسى فى نقلها . ولكن انتشار هذا السلاح يجعل من المحتمل الاعتقاد أنه سلاح حامى قديم قد انتشر من مصر إلى أثيوبيا »(١٨) وفى المصدر نفسه يعتقد أن نوعا من أنواع الفخاخ المسمى عجلة الصيد Spiked wheel-trap الموجودة بين العبابدة واللانجو والأتشولى والنوير والناندى والشلوك والتركانا ، وكانت مستعملة فى مصر القديمة ، من تراث الحضارة الحامية . كذلك ذكر عادة ثنى قرون الماشية التى تنتشر بين النوير والدنكا والشلوك ووجدت فى مصر فى الأسرة الخامسة ، هذا بجانب العاطفة الخاصة نحو الماشية والتى تصل إلى درجة التقديس . ومن المظاهر الحضارية التى ذكرها أيضاً وشبهها بالحضارة المصرية ، عبادة الشمس بين قبائل البرون على حدود

---

(١٧) Seligman, C. G., 1934. "Egypt and Negro Africa" London, P. 8.

(١٨) Seligman, C. G., 1932. "Egyptian Influence in Negro Africa" P. 457.

أثيوبيا. وحفلات قتل الملك المقدس وتجديد مدة حكم الملك التى شبهها بحفلات «السد» المصرية. والطهارة الفرعونية المنتشرة بين دنكا الريك . هذا بجانب وجود الهارب الصغير المسمى Kundi بين الزاندى والذى يشبه الى حد كبير مثيله فى مصر القديمة .

هذا التردد فى آراء سليجمان بين الأثر الحامى القديم والأثر المصرى يحاول أن يعلله مرة على أساس النشأة المزدوجة للظاهرة الحضارية المتشابهة — أى إمكان نشوء الظاهرة الحضارية فى مركزين منفصلين ، ثم يعود فيقول إن ذلك التشابه يرجع إلى الأثر الحامى المشترك فى أجزاء كثيرة من أفريقيا .

وفى مرة أخرى يحاول سليجمان تفسير التناقض بين نظريته الحامية وفكرة التشابه العديد مع مصر الفرعونية فيصل إلى حل وسط كما جاء فى قوله[١٩] : إن مصر فيما قبل الأسرات هى أقدم وأحسن مثل للحضارة الحامية القديمة :

"...Hamitic Stock of which the pre-dynastic Egyptians are the oldest and best known representatives".

## النظرية السودانية(*)

### فيلى شيلده[٢٠] W. Schilde

على الرغم من أن فيلى شيلده لم يعمر طويلا (ولد عام ١٨٩٤ وقتل فى خلال

---

(١٩) Seligman, C. G., 1934. Ibid P. 57.

(٢٠) راجع فى قائمة الكتب الملحقة بهذا المقال تحت اسم شيلدة اهم مؤلفاته .

(*) ليس المقصود جمهورية السودان وانما الحضارات التى تنتشر فى اقليم السودان الطبيعى الذى يمتد من حوض السنغال الى الهضبة الحبشية .

الحرب عام ١٩٤٢ ) إلا أنه ترك عدد من الأبحاث عن أفريقيا كلها كانت تنبيء عن فكر ثاقب ، ودراسات عميقة ، وإن لم يكون فكرة شاملة عن الحضارات الأفريقية ككل . وقد كان موضوعه المحبب دراسة الهجرات الحضارية والبشرية . ومن أهم الأبحاث فى هذا الموضوع مقاله المعنون ، « العلاقات الحضارية فى السودان » سنة ١٩٢٩ .

"Ostwestliche Kulturbeziehungen im Sudan".

وقد استخلص شيلده أن عادة القتل المقدس للملوك والزعماء الدينيين السياسيين التى تظهر فى عدد من الشعوب الأفريقية عادة ترجع إلى الحضارة السودانية ، وليس إلى الحضارة الحامية القديمة كما اقترح سليجمان . ذلك أن هذه العادة تتوزع أكثر بين الجماعات الزنجية التى تعيش على زراعة الفأس وبالتالى فإنها — بناء على نظرية فريزر — ترتبط بخصب الأرض الزراعية ووفاء المحصول . أما بالنسبة للرعاة الذين ينتشرون فى اقليم السودان فإن هذه العادة لا تظهر بينهم . كذلك يقول إن عادة قتل الملوك بين الآسر الحاكمة الحامية الأصل فى اقليم البحيرات العظمى والكنغو ليست حامية ، إنما أخذها الحكام عن الشعب الذين يحكمونه — وهم أصلا الزنوج المزارعين .

وصحيح ما قاله شيلده عن اقتصار توزيع عادة قتل الملوك على المزارعين الوثنيين فى الوقت الحاضر فى اقليم السودان . ولكنه تناسى أوفات عليه أن الرعاة الحاليين فى اقليم السودان إما عرباً مسلمين ، أو زنوج السودان الذين أسلموا وتأثروا بالحضارة والمفاهيم الإسلامية — وكلها تنافى تماماً اعتقادات التجسد الإلهى فى الملك الحاكم — وهو الأساس الذى ينبنى عليه تقليد قتل الملك قتلا مقدسا . وهناك شواهد تاريخية عن قتل الملك ، فى مملكة مروى والنوبة قبل أن تتحول إلى الإسلام . فالراجح إذن أن التفسير على أساس تحليل الوضع الراهن فقط ليس كاملا وقد يؤدى إلى أخطاء كما وقع ذلك لشيلده .

ولكن يبدو أن شيلده يعود ثانية ليقول إن عادة قتل الملوك تنتشر فى

الأماكن الهامشية الانتشار مؤثرات الممالك الشرقية . وهو يحاول فى هذه الجملة أن يفسر ظهور هذه العادة فى أفريقيا ، وجنوب الهند معاً فيعيد أصلها البعيد إلى دول الشرق القديمة فيما بين دجلة والنيل فى عبارة مباشرة خشية الزلل .

وهكذا نرى أن شيلده يرفض النظرية الحامية ، ويحبذ نظرية جديدة عن الأصل السودانى لعادة هامة . ثم يعود فى موارية ليتكلم عن انتشار حضارى من دول الشرق القديمة الذى تمثله فى أفريقيا مصر الفرعونية أو فيما قبل الأسرات .

### هيرمان باومان (٢١) H. Baumann

يعد باومان من العلماء الألمان الذين كان لهم فى الفترة الحديثة دوراً هاماً فى الدراسات الحضارية الأفريقية ، أدت إلى تغيرات جذرية فى دراسة اثنوجرافية وأنثروبولوجية أفريقيا . وأهم ما نشره كان عام ١٩٣٤ . ثم عام ١٩٤٠ . وهو فى عام ١٩٣٤ يقول إن هناك الحضارات السبعة التالية :

١ — الحضارة القزمية .

٢ — حضارة الصيد فى نطاق الأعشاب الفقيرة (السكان الأورو — أفريقيين أو البشمن ) .

٣ — الحضارة الزنجية القديمة . ويسميها أحيانا الحضارة الأفريقية القديمة ( وهى تشابه حضارة السودان القديمة فى تصنيف أستاذه أنكرمان ).

٤ — حضارة غرب أفريقيا وهى مكونة من تداخل عناصر حضارية عديدة .

---

(٢١) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم باومان اهم مؤلفاته.

٥ — حضارة الحاميين الشرقيين ويمثلها الرعاة فى شرق أفريقيا .

٦ — حضارة الحاميين الشماليين وهى خليط بين حضارة البحر المتوسط القديمة وعناصر حضارية من الشرق الأدنى .

٧ — الحضارة السودانية الحديثة وهى تتمثل فى أبرز صورها فى نطاق السفانا الشمالية والجنوبية .

وفى عام ١٩٤٠ أعاد باومان النظر فى آرائه بناء على تكامل معلومات عديدة ودراسات وفيره ولكنه لم يغير من أسماء الحضارات التى ذكرها عام ١٩٣٤ . وتتلخص أهم نتائج أبحاثه العديدة فى النقط التالية .

— هناك تشابه غير عادى واتفاق شبه كامل بين حضارة الأقزام والحضارة الزنجية القديمة .

— يؤكد باومان أن الحضارة الزنجية القديمة هى أقدم حضارات أفريقيا وتكون الأساس الذى أخذت منه حضارة غرب أفريقية والحضارة السودانية الحديثة .

— ويؤكد أن النيليين هم زنوج أفريقيا القدماء ولكنهم اختلطوا بشدة مع الحاميين الأثيوبيين .

— أما الهوتنتوت فهم خليط بين الأورو — أفريقيين ( البشمن ) والعناصر الحامية الشرقية .

— ويقول إنه من الصعب أن نميز فى أقليم السودان بين عناصر الحضارة السودانية الحديثة وعناصر حضارة البحر المتوسط القديمة ، وتلك العناصر التى تستمد أصولها من الشرق الادنى القديم وأخيرا المفردات والتركيبات الحضارية العربية الإسلامية . فهو يرى عن حق أن كل هذه العناصر

والطبقات الحضارية قد تداخلت معا مكونة حضارة متناسقة ومتفاوتة فى آن واحد .

ـ ويؤكد باومان أخيرا أن هذا الخلط الشديد الذى حدث فى اقليم السودان له نظير أشد تداخلا فى النطاق الساحلى لشرق أفريقيا حيث اختلطت عناصر حضارية أفريقية مع عناصر عربية وفارسية وهندية وعناصر أخرى مشتقة من الملايو وأندونسيا .

وهكذا نرى أن باومان ـ على الرغم من تأثره بأنكرمان وفروبنيوس وبعض الشىء بسليجمان ، إلا أنه وفق فعلا إلى حل عدد من المشكلات الهامة فى الدراسات الأفريقية . وقد أفادت هذه الحلول كثيرا مما يثبت صحتها حتى الآن .

وعلى الرغم من أن باومان يجمع العديد من العناصر الحضارية فى النطاق الزنجى والسودانى من أفريقيا ويشبهها بما كان فى الحضارة المصرية القديمة الا أنه يعود فى النهاية فيرجع عدد منها الى الحضارة السودانية كما ذكر شيلده . ومن أهم الأمثلة على ذلك أنه يرفض نظرية سليجمان عن الأصل الحامى لفكره القتل المقدس للملك ويربطها فقط بالحضارة السودانية ولكن باومان ينسى أنه قد وصف الحضارة السودانية بأنها اشتراك معقد لعدد من الحضارات منها ماهو مرتبط بالشرق الأدنى ومنها ماهو مرتبط بحضارة البحر المتوسط . فموقف باومان فى ذلك موقف يشابه موقف سليجمان حينما يتردد كثيراً بين الأصول المصرية لعدد من الظاهرات الحضارية والأصول التى يفترضها . الفارق الوحيد أن سليجمان يعود الى النظرية الحامية وباومان وشيلده يعودان الى النظرية السودانية .

## النظرية المصرية

سبق أن أشرنا الى أن معظم الكتاب الذين حاولوا تفسير التشابه

الحضارى لعدد من العناصر فى أفريقية فى صورة نظرية أو أخرى لم يستطيعوا أن ينكروا فى كتاباتهم العديدة وجود التشابه الكبير بين هذه العناصر الحضارية والحضارة المصرية القديمة . ونستعرض فيما يلى آراء عدد من الباحثين بناء على مشاهداتهم لهذه العناصر التى لاحظوا أوجه الشبه بينها وبين الحضارة المصرية القديمة .

## ميك (٢٢) C. K. Meek

لاحظ التشابه فى نواحى الحضارة الاجتماعية والمعادية والمعتقدات بين زنوج نيجيريا ومصر القديمة . فذكر أن ديانة قبيلة جيبو Jibu — وهى إحدى قبائل الجوكون ذات الحكم الملكى المقدس تدور حول عبادة الشمس ، فلديهم الإله الأعلى Shido وهو وإله الشمس انيونو Anyunu شىء واحد ، وتعمل له المراسيم الدينية خصوصا مراسيم الشمس التى تقام سنويا قبل بذر التقاوى للزراعة . وتقام الحفلات عند شروق الشمس وغروبها حيث يقوم الكاهن ومساعدوه بتقديم القرابين للاله فى هيكله .

كذلك يقول ميك إن مام Mam أحد آلهة الجوكون هو تحريف للاله Maat المصرى ، ويرتبط هذا الإله بالخليقة وهو حاكم الأموات فى العالم السفلى . ثم يعمم ميك فيقول إن عبادة الشمس منتشرة فى جهات كثيرة فى غرب أفريقية حيث يسمى إله الشمس Shui وهو شبيه بالاله المصرى القديم شو Sw .

ويذكر ميك أنه يوجد أيضا تقليد « فك قماش الفم » الذى يوازى تقليد « فتح الفم » عند المصريين opening of the mouth

---

(٢٢) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم ميك

### تالبوت [٢٣] P. A. Talbot

درس تالبوت قبائل جنوب نيجيريا مثل الأيبو والأيبيبيو واليوربا وغيرها ولاحظ الكثير من المفردات الحضارية التى شبهها بالحضارة المصرية القديمة ونذكر منها مايلى .

( ١ ) عمل المقابر ذات الأنفاق والسراديب والتى تستعمل حاليا لدفن الزعماء وعليه القوم .

( ٢ ) قتل زوجات وخدم وحيوانات الزعيم الميت ودفنها معه ومع ممتلكاته الخاصة .

( ٣ ) تجفيف جسد الميت بالدخان كما فى الايبو كطريقة لتحنيطه .

( ٤ ) لف الجسد فى نسيج من لحاء الشجر مما يعطى فكرة المومياء .

( ٥ ) وضع الجثمان على ظهره وذراعيه فوق صدره وأحيانا توضع فى يده عصا

( ٦ ) يرسل الايبيبيو مائدة قرابين يوميا إلى المقبرة حتى نهاية مراسيم الدفن .

( ٧ ) يقيم الايبيبيو كوخا صغيرا يسميه تالبوت بيت الكا Ka house ويوضع فيه تمثال يمثل الميت جالسا فوق مقعده كما فى الحياة الدنيوية ويملابسه الكاملة وفوق رأسه قبعة رمز السلطة وتوضع أمامه مائدة القرابين .

### باومان H. Baumann

أما الأستاذ باومان Baumann فقد ذكر عدد من العناصر الحضارية

---

(٢٣) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم تالبوت

الشبيه بالحضارة المصرية السائدة فى أفريقيا الزنجية نذكر منها مايلى :

١ — مجمع الاله والتفكير الكوزمولوجى عند اليوربا يشابه كثيرا مصر الفرعونية .

٢ — تعتقد جماعات Mungo-Kundu فى شمال الكنغو بوجود قوى غير ماديه تسمى Elima يمتلكها كبار السن فى العشيرة ويمكن لغيرهم أن يمتلكوها اذا اجتهدوا وترتبط هذه القوى بكل الذكاء ونواحى النجاح والقوة . هذه القوى تتشابه كثيرا مع فكرة « الكا » عند الفراعنة وتساوى الطاقةالتى تهبط من الأسلاف الى الأحفاد والأبناء . وتختلف الفكرة الراهنة عند المونجو عما كانت عليه عند المصريين فى أن القوى غيرالمادية قاصرة على كبار السن بينما لكل شخص فى مصر « كا » خاصة به .

٣ — يستخدم المونجو — كوندو التوابيت فى الدفن ، كما يصنعون تماثيل من الصلصال لتوضع مع الأموات فى القبور — مما يعيد إلى الأذهان بعض عقائد الدفن عند المصريين القدماء .

٤ — عند الماليكه فى النيجر الأعلى مايسمى بالروح الثانية ، وهى تصحب الشخص منذ مولده حتى وفاته ثم تنتقل بعد ذلك إلى تمثال المتوفى . وتتحلل الروح الثانية من الشخص أثناء النوم أو الوفاة . وهذه الروح تساوى الطاقة الحية أو طاقة الحياة . وإذا صادفت الروح حادثاً سيئاً صادف الجسم شيئا سيئا هو الآخر . ومثل ذلك نجده أيضاً بين سكان الفولتا العليا . فهناك روح تحرس الشخص طوال حياته تسمى Nyama عند قبيلة Bobo، وتسمى Sera Segera عند قبيلة Nankanse .

٥ — تنتشر فى مناطق الفولتا العليا أيضاً وفى مناطق ساحل الأطلنطى من غرب أفريقيا عبادة الثعبان ، ويرتبط ذلك بالخصوبة ، وإن كان الثعبان يمثل الشيطان ويشابه ذلك العداء فى مصر بين الإله رع والثعبان .

٦ ـ عند المازاى فى شرق أفريقيا إله أسود طيب وإله أحمر شرير يتقابلان خلال العواصف الرعدية . وفى مصر الفرعونية إله الشر «ست» يرمز إليه باللون الأحمر كما أن اللون الأسود يغلب على الحيوانات المقدسة.

تاوزنج [٢٤] G. Thausing .

ذكرت الأستاذة جرترود تاوزنج أنه فى نطاق الحضارات السودانية الجديدة فى وسط وغرب أقليم السودان الطبيعى مركبات حضارية مرتبطة وتتشابه مع الحضارات العليا ، تماما كما هو الحال فى حضارات شرق أفريقيا عند الكافا فى الحبشة وبانتو البحيرات فى أوغندا التى توصف دائماً بأنها مستودعات للحضارة المصرية القديمة .

فى حضارات السودان الجديدة نجد دائماً حاكم مقدس ، وزواج الملك بشقيقته ، والدور الهام للملكة الأم ، والقتل المقدس للملك ، والنار المقدسة التى ترتبط بحياة الملك بل تمثلها . والمحرمات العديدة على الملك ، والفوضى التى تدب بعد وفاة الملك أو ما يسمى مرحلة الانتقال بين وفاة الملك والفترة التى تنقضى حتى يتم لخليفته ارتقاء العرش .

وكلها أشياء نلاحظها بطرق مختلفة فى مصر الفرعونية : ألوهية الفرعون ، زواج الشقيقات فى البيت المالك ، مركز الملكة الأم .

أما حفلة الحب سد hb-sd التى سجلت على المعابد المصرية فقد قيل إنها أصلا كانت تعنى قتل الملك قتلا مقدساً ثم تحولت بعد ذلك إلى أن أصبحت تجديداً لحكم الملك كلما انقضى عليه فى الحكم عدد معين من السنين .

---

(٢٤) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم تاوزنج «

كذلك النار المقدسة تمثل حياة الفرعون ولو أن Pr-Nsr « بيت اللهب » فى عقائد الدلتا كانت ترتبط بالحية القديمة أو الآلهة التى تنفث اللهب . كذلك نعرف فى مصر القديمة وصف الملك بأنه النار Der Konig, das Feuer zu seinerzeit ولهذا نجد فى كتابات الاهرامات أن الملك هو اللهيب الأحمر ، وأنه جاء من جزيرة النار ليحل العدالة محل الظلم . كذلك عند وفاة الملك كان يقال : أنظر إلى اللهب قد صعد إلى السماء ... ، والنار المقدسة التى لا تنطفىء إلا عند وفاة الملك ظاهرة شائعة بين عدد كبير من القبائل الأفريقية .

وعلى الرغم من أن الأستاذه تاوزنج توافق الأستاذ باومان على فكرة الأصل الحامى للتشابه بين مصر وبقية أفريقية ، إلا أنها تعود فتؤكد أنه لم يحدث أبداً فى أفريقيا مثيلا لمصر غير مصر واحدة .

بيبر [٢٥] F. Bieber

يقول إن الملك فى كافا Kaffa يسمى Heqo وهو يساوى عند المصريين اصطلاح hk بمعنى الملايين اللانهائية من طبقات الجو . ولكن الأستاذة تاوزنج تقول إن هكو عند كافا يساوى hkz عند الفراعنة وهى تساوى حاكم .

أما الأستاذ جيفريز [٢٦] M. D. W. Jeffreys فقد بنى حكمه على التشابه بين مصر الفرعونية والجماعات شبه البانتووية و الزنجية من دراسته لنظام الحكم الثنائى أو الحكم المزدوج فى قبائل اليوربا والايبو .

---

(٢٥) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم بيبر

(٢٦) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم جيفرز

روسكو [٢٧] J. Roscoe

كتب روسكو عن قبائل أوغندا وذكر الكثير من المظاهر الحضارية الشبيه بالحضارة المصرية فقد لاحظ النظام الملكى المقدس بما فيه من قتل أخوة الملك الحاكم عند ما يتولى العرش وقتل أية واحدة من بناته إذا تزوجت أو أنجبت طفلا . كذلك المركز الممتاز للملكة الوالدة والملكة الأخت ، فلكل منهما بلاطها الخاص ووزراؤها وموظفو البلاط مماثلين زملائهم الذين فى خدمة الملك سواء فى اللقب أو فى اختصاص العمل . كذلك المراسيم والطقوس الكثيرة الخاصة بالملك فى حفلات الدفن حيث تحفظ الجثة ويقدم الرعايا الملابس المصنوعة من لحاء الشجر قرابين للملك الميت ، ويقتل أربع من زوجاته وخدمه الخصوصيين ومئات من العبيد الأسرى . ويذكر روسكو أن الملك الحاكم يقوم بزيارة قبر والده ويقدم القرابين البشرية لروح أبيه وذلك مرة خلال حكمه .

ومما ذكره روسكو أن كل ملك يحتفظ بالنسر كطوطم له بجانب طوطم العشيرة . وذلك على الرغم من عدم وجود عشيرة النسر . كما لاحظ تقليد « رمى الأمم » Shooting the nations التى يقوم بها ملك الباجندا فى حفلات تتويجه حيث يقذف السهام على الأمم المجاورة .

لينتون [٢٨] R. Linton

ذكر رالف لينتون أن الحضارات الأفريقية الزنجية فيها عناصر حضارية من مصر وساحل البحر المتوسط ، مستنداً إلى العلاقات التجارية المصرية القديمة مع القبائل الزنجية فى أعالى النيل منذ ٢٥٠٠ ق . م على الأقل ، كما

---

(٢٧) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم روسكو
(٢٨) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم لينتون

أشار إلى فتح المصريين لبلاد النوبة واحتلالها فى عهد الأسرة الثامنة عشر ١٥٧٠ — ١٢٠٠ ق . م واتخاذ النوبيون عبادة آمون رع المصرى والحضارة المصرية عموماً . ثم هروب كهنة طيبة إلى نباتا عندما استقر الليبيون فى مصر ، وزيادة نشر الحضارة المصرية هناك .

وبناء على هذا فإن لينتون يعتقد أن العناصر الحضارية دخلت أفريقيا الزنجية عن طريق السودان النيلى . ثم هو يذكر الكثير من هذه العناصر مثل انتشار فكرة ألوهية الملك الذى يعتمد رخاء البلاد وسعادتها على قوته ، وعادة زواج الملك بأخته وهى العادة التى كانت منتشرة فى كثير من ممالك وسط أفريقية وتدل دلالة قوية على الصلة بمصر ، وطبقاً لهذا النظام كانت على الملكة واجبات ولها امتيازات ومركز وثروة تشبه ما كان للملك ، وهذه العادة متبعة فى قبائل الباهيما فى أوغندا .

كذلك يشير إلى أن الديانة فى قبيلتى اليوربا والأشانتى بما فيهما من نظام كهنوتى متقن وآلهة متعددة يعبد كل منها على حدة ، وحيوانات مقدسة تشبه ما كان فى ديانة مصر . كذلك فإن الأشانتى يعتقدون فى وجود قرين روحانى يزور القبر بعد الموت ويقدمون له القرابين كما كان يفعل المصريون الذين كانوا يعدون قبورهم من أجل راحة الـ « كا » ويقول لينتون إنه مما يزيدنا إيماناً بوجود هذه الصلة القديمة أن الأشانتى يطلقون على هذا القرين اسم « كرا » .

ولكن الأستاذ لينتون بعد أن ذكر الكثير من العناصر المتشابهة بين مصر وأفريقية الزنجية نجده متأثراً إلى حد كبير بالأستاذ سليجمان عن الأصل الحامى لهذه المظاهر حيث يقول . . هذه الأشياء التى ذكرناها وغيرها من العناصر الأخرى التى توحى بأثر مصر نراها موزعة توزيعاً غير منتظم ولهذا يصعب علينا تفسيرها على أساس انتشار التأثير المصرى . ويبدو من الأرجح أن وجودها فى كل من مصر وأفريقية الزنجية كان نتيجة لتطور

مستقل فى كل منهما بعد أن تفرعا من أصل واحد ، من حضارة حامية قديمة.

هيرشبرج [٢٩] W. Hirschberg

حدد فالتر هيرشبرج أهم العناصر الحضارية المصرية القديمة الموجودة فى الممالك الزنجية فيما يلى:

١ — إطالة الجمجمة إلى الخلف — هذا التشويه يوجد أقدم نموذج له فى تمثال أخناتون الذى يعود الى ١٣٧٠ ق . م — هذه الظاهرة توجد بين الطبقات الحاكمة فى كثير من القبائل الافريقية فى الجزء الغربى من وسط أفريقيا مثل أنجولا وتظهر بوضوح بين قبائل المانجبتو. وتحدث هذه الإطالة بواسطة ربط الرأس بلفائف من الأقمشة فى سن الرضاعة وبهذا لا يصبح للرأس اتجاه للأمتداد إلا إلى الخلف وأعلا . كذلك تحدث الاطالة فى نيجيريا والكمرون بواسطة تدليك الرأس لكى تنمو فى الاتجاه المطلوب . وهذه الحالات من تعديل النمو الطبيعى الرأس يعتبر مبدأ جمالى يسير وفقه الطبقة الحاكمة وقد يقلدها فى ذلك طبقات الشعب .

٢ — عمل المومياء وتحدث غالباً بالنسبة للزعماء والملوك فقط . فقد وجد فى الحضارات العليا فى مصر وشمال أفريقيا عديد من أنواع التحنيط وعمل المومياء وفكرة لف الجثمان فى كثير من الأقمشة أو غيرها من المواد كى تقلل إلى الحد الأدنى احتكاك الجسد بالارض . ونلاحظ أن هذه الظاهرة قد تطورت بشكل واضح فى مناطق معينة مثل ساحل لوانجو شمال مصب الكنغو وعند جماعات بابيندە Babwende شمال نهر الكنغو قرب برازفيل . وقد شاهد أحد الكتاب سنة ١٩٢٧ عمل المومياء عند البابيندە ، بعد أن جفف الجسد تماماً لف فى كميات هائلة من النسيج والحصير والقش ثم يخاط عليه

---

(٢٩) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم هيرشبرج

جلد أربع أو خمس ثيران بحيث تحولت المومياء الى كتلة هائلة فى صورة إنسان يبلغ حوالى خمسة أمثال الانسان العادى فى سمكه وثلاثة أمثاله فى طوله . وفى القرن ١٧ و ١٨ كان سكان ساحل لوانجو يلفون جسد الحاكم فى كميات هائلة من المواد فى شكل شرنقة الفراش . كذلك يحتمل أن يكون ملوك مملكة الكنغو القديمة استعملوا طريقة لف جثمان الميت بكميات كبيرة من المواد . والغالب بين الحكام وملوك القبائل الأفريقية أن الجثمان يلف دائماً بجلود الماشية .

٣ — عمل التماثيل التى تشابه الميت كما فى المقابر الفرعونية حيث توجد التماثيل بجوار المومياء . فملوك مملكة الكنغو القديمة كانوا يصنعون تمثالا أثناء عملية تجفيف جسد الملك بواسطة الدخان التى كانت تستغرق وقتاً طويلا .

ويذكر هيرشبرج بيت الـ « كا » الذى كتب عنه تالبوت حيث يوضع فيه تمثال من الطين الجيد يشبه الزعيم المتوفى ويضعون فوق التمثال ملابس الزعيم كما يضعون على رأسه القبعة ويجلس هذا التمثال على كرسى وفى كل صباح تقدم له التضحيات . وهناك اعتقاد بأن الروح ترتبط بالتمثال ولذلك يتكلم الناس مع التمثال كما يتكلمون مع الشخص الحى .

٤ — التشابه بين الفن الافريقى الحديث والفن المصرى القديم ، ومن أوضح الأمثلة منطقة لوالابا — كساى فى الكنغو حيث توجد التماثيل دائماً وبها الذقن المستعار وهى ظاهرة تمثل التماثيل المصرية القديمة . كذلك تمثال الملك Kata-mpula ملك باكوبا Bakuba على نهر كساى (وكان يحكم فى نهاية القرن ١٨ وأوائل ١٩ ) — حيث يبدو فيه بوضوح طابع التماثيل المصرية القديمة الهدوء والحكمة . ويدخل فى هذا الموضوع أيضا مسألة الذقن الملفوفة فى جديله على أنها مظهر من مظاهر الرئاسة فى أفريقيا الزنجية . مثال ذلك ما يفعله ملوك البانيورو حينما يضعون ذقنا مستعارة من شعر أبيض من القردة ، وكذلك جماعات الباكراجوى فى غرب أوغندا حيث يلبس الزعيم ذقن مستعارة تربط إلى الرأس بواسطة عقد من الخرز .

ثم يقول هيرشبرج إن هذه المظاهر الفرعونية دخلت أفريقية الزنجية لا من أرض مصر نفسها إنما من الإقليم النوبى فى بناتا ومروى[٣٠] .

"Das grosse Tor, durch das der pharaonische Gedanke in Negerafrikas Einzug hielt, bildete nicht Altägypten selbst, sondern das obere Nilgebiet, Napata und Meroe. Das mag im ersten Augenblick ein wenig uberrasschen".

وقد نشأت مملكة مروى حوالى الألف ق. م. وملوكها أصلا من كهنة آمون الذين هربوا من طيبة . وظلت مروى تحت الحكم المصرى قرابة ألف سنة ثم تحولت إلى المسيحية تدريجياً بعد أن دمرتها قوات ملك أكسوم المسيحى فى القرن الرابع الميلادى وبعد قرنين أى فى أواسط القرن السابع أصبحت مسيحية وبذلك انتهى عهد الوثنية ونفوذ الكهنة وقد اضطر هؤلاء للهجرة أو ربما طردوا وسلكوا طرقا إلى شمال كردفان ودارفور.

ويؤكد ذلك بقوله إننا نجد كثيراً من مميزات وعناصر الحضارة الملكية فى مراحل مختلفة تمتد فى توزيع جغرافى من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب فى مناطق منعزلة مما يدل على اتجاه الهجرات ولهذا نجد كثيراً من التماسك الحضارى بين مصر القديمة ومروى من ناحية وتلك الدول والأقاليم التى توجد على طريق الهجرات من ناحية أخرى . ونجد أن هذا النفوذ المصرى المروى القديم يصل إلى ممالك الهيما فى هضبة البحيرات وزيمبابوى فى روديسيا وقبائل بارو تسى Barotsi وممالك الكوباوا اللوباوا اللوندا والكنغو البلجيكى جنوبا . وإلى الغرب نجد هذه العناصر الحضارية تمتد من دارفور إلى السودان الأوسط فى ممالكه القديمة التى ازدهرت فى العصور الوسطى والهوسا وقبائل ثنية النيجر والسودان الغربى وممالك ساحل غانة . وهذه الدول كلها كانت ترتبط فيما بينها ومن أهم وسائل هذا الارتباط التبادل التجارى . وأن هذه الممالك والقبائل تجمع فيما بينها نموذج حضارى

Hirshberg, 1959. "Altägyplische Kultureinfluss in Neger-Africa". P. 50.

خاص مميز من أهم عناصره الملك الكاهن أو الملك المقدس أو القتل المقدس للملك ثم المركز الهام للملكة الأم فى إدارة شئون المملكة إلى جوار ابنها وبعض مظاهر النظام الأبوى فى الوراثة ، ونظام زواج الملك بشقيقته . كذلك بعض مظاهر فى الملبس والزينة خاصة بالأسرة الحاكمة مثل الذقن المستعارة والطرق المختلفة لتجفيف جسد الملك أو الزعيم ولفه بكثير من المواد محاولة منهم فى عمل مومياء له . والمركز الممتاز الذى يصل إلى حد التقديس الماشية ، وطريقة عمل مدافن للملوك... إلى آخر ذلك من العناصر.

الخريطة رقم (٢) .

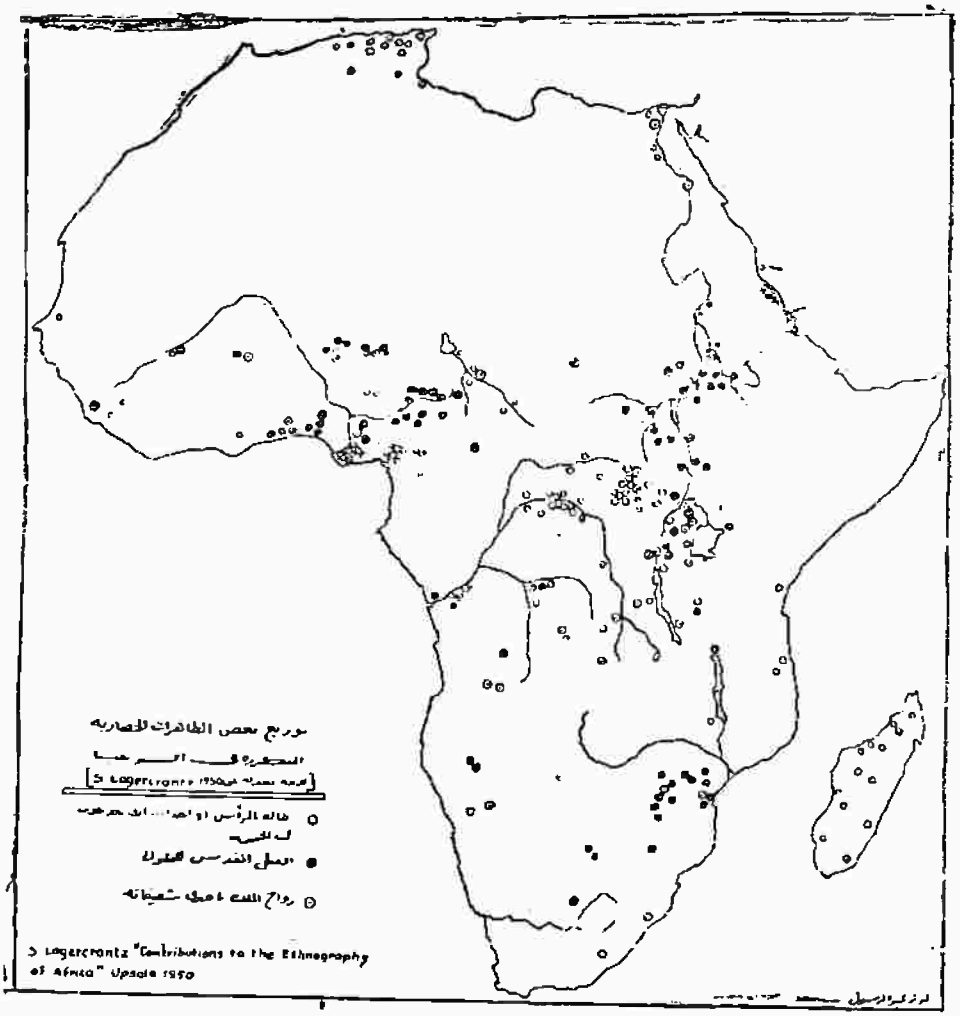

ثم يحاول عبر شبرج أن يبين إذا كانت هذه العلاقات بين مصر وأفريقية الزنجية قديمة جداً إلى ماقبل التاريخ أو أنها حديثة تعود إلى الهجرات ، فيقول إننا نجد اشتراكا فى الجنس والعادات واللغات وبالتالى قرابة قديمة جداً تربط بين مصر وأفريقية الزنجية ، ويوجد من بين الكتابات الحديثة كتابين يؤيدان هذه العلاقات الحضارية منذ ماقبل التاريخ والمؤلفان هما H. G. Mukarovsky ، E. Zyhlarz وهما من علماء اللغة ومن أهم ماذكراه وبحثوا فيه الترابط مابين كلمة شمس Na — Nge وكلمة ماشية Nag — ge فى لغة الفولانى فى السودان الغربى — وقد أوضحا أن الجذر Nag يرجع إلى طبقة لغوية قديمة ترتبط باللغة المصرية القديمة . وإلى جانب هذه الاكتشافات اللغوية نجد أيضاً تشابها فى حضارات ماقبل التاريخ فمثلا الطبقة الثانية القديمة من رسومات الصخر فى صحراء مصر العليا نجد ماشية شمس حيث القرون فى شكل قرص أو بين قرونها قرص - ويماثل هذا الكشوف التى قام بها ليوفروبنيوس فى الصحراء حيث وجد كثير من الرسوم على الصخر ومن بينها ماشية قرونها على شكل قرص أو فيما بين قرونها حلقة .

ويمكننا أن نربط بين ماشية الشمس هذه أو ماشية السماء وبين مثيلاتها فى مصر ، ويؤكد هذا ما استخلصه العالمان اللغويان الذى سبق ذكرهما عن الارتباط الجذرى وارتباط المعنى والمدلول بين الماشية والشمس فى لغة الفولانى . ويمكننا أن نتذكر فى هذا المجال الآلهة هاتور Hator التى تصور فى شكل بقرة تحمل فيما بين قرناها قرص للشمس ، أو نتذكر صورة عجل أبيس المقدس الذى كان يظهر فى العصور الأخيرة من تاريخ مصر مرتبطاً بقرص الشمس دائما . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول إن هناك احتمال ارتباط قديم يعود إلى عصور ماقبل التاريخ بين مصر وبقية أفريقيا .

والواقع أنه من الصعب الاجابة على التشابه الحضارى بين مصر وأفريقية الزنجية إجابة صحيحة تماما ، فربما كانت العلاقات القديمة جداً فيما قبل التاريخ هى السبب وربما كانت هذه العلاقات أحدث من ذلك تعود الى الهجرات التاريخية .

وفى كتاب ميروفتس[٣١] عن قبائل الأكان Akan أن هذه القبيلة أو على الأقل فى تاريخها وهو تاريخ حكامها مايشير الى أنها أتت من جهة الشمال وخاصة من منطقة واحة بلما على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى .

وفى أبحاث محمد رياض[٣٢] عن الشلك والجوكون والنظام الملكى المقدس دراسة تحليلية لهجرة هذه المظاهر الحضارية من مصر إلى مروى ومنها إلى دارفور ثم الى السودان الغربى ، وكذلك من دارفور إلى أعالى النيل وهضبة البحيرات .

---

(٣١) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم ميروفيتس
(٣٢) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم رياض

# ختـــام

بعد عرض هذه الآراء العديدة التى ترمى كلها إلى ظهور وتوزيع عدد من الظاهرات الحضارية المترابطة فى نواح مختلفة من أفريقيا ربما أمكننا أن نختتم هذا المقال برأى قد يكون بعيدا عن أن يحسم الموضوع ، ولكنه من قبيل الإدلاء بدلونا فى هذا الموضوع .

فخلاصة القول انه من الملاحظ أن كل الكتاب قد أجمعوا على وجود التشابه فى عدد من العناصر الحضارية ، وإن اختلفوا فى تفسير أصلها ، ولكن الكثير من الكتاب الذين ذكرناهم يميلون إلى تأييد التشابه الكثير بين مصر الفرعونية ومروى وبين بقية أفريقيا مما يجعل لهذه النظرية الكثير من الثقل . وعلى أية حال فإن الدراسات التفصيلية الدقيقة لعدد من الظاهرات الحضارية من الناحيتين الوظيفية والتاريخية يجب أن تتم قبل أن يحسم هذا الجدل الكبير . وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الدراسات الأركيولوجية والدراسات الفنية قد تصبح عاملا حاسما فى الموضوع ، لأنها سوف تلقى الكثير من الضوء على العلاقات المكانية فى الماضى وربما ساعدتنا على دراسة موضوع الهجرة البشرية والحضارية فى أفريقيا . ومن الأمثلة التى أسوقها على تدعيم هذا الرأى الدراسة التى قامت بها السيدة الدكتورة أنا ماريا هيفل A. Hefel عن الآثار المصرية وآثار شمال أفريقيا والبحر المتوسط الغربى فى تشكيل فنون صب النحاس وطرقه فى تلك المنتجات الفنية الرائعة التى نشاهدها فى ساحل غانة بين اليوربا والبنين والاشانتى . وملخص بحثها[٣٣] أن النحاس — صهره وطرقه — كان معروفا فى غرب أفريقيا قبل وصول البرتغاليين ، ففى كتابات ابن بطوطة والبكرى وصفا شيقا

(٣٣) راجع فى قائمة الكتب بهذا المقال تحت اسم هيفل

للعامل صهر النحاس فى كيلى Killi فى دلتا النيجر الداخلية وفى لوبى Lobi فى الفولتا العليا . وهذه المصاهر يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر وربما أقدم من ذلك . والراجح أن مصنع كيلى يعود إلى القرن التاسع أو العاشر .

كذلك تبرهن هيفل بطريقة أخرى غير الكتابات التاريخية على قدم صناعات النحاس فى غرب أفريقيا فتقول إنه لا يمكن أن يكون الأوربيون قد أثروا على طريقة عمل النحاس فى قوالبه المعروفة لأن مثل هذه القوالب الفنية لا يمكن أن تكون قد ظهرت مرة واحدة فجأة أثر وصول الأوربيين . ذلك أن الاتجاهات الفنية تستغرق وقتا طويلا قبل تكاملها واستقرارها فى صورة فن جديد .

وتوضح هيفل إرتباطات متعمقة فى القدم لفنون النحاس فى غرب أفريقيا عن طريق الدراسة التفصيلية للمنتجات الأفريقية فى بنين والفولتا . ونتيجة لهذه الدراسات خرجت إلى نتائج هامة ملخصها أن فن بنين الأول وهو الذى يطلق عليه فن ( يوربا — جيبا — بنين ) يرتبط ارتباطاً وثيقا فى تفصيلاته ودقائق صنعه بمثيله من الفنون المصرية الفرعونية فى أواخر الدولة الحديثة وأوائل العصور اللاحقة له — أى قبل العصر البطلمى فى مصر — وهذا يعنى أنه كان هناك اتصال بطريقة ما خلال الألف الأولى قبل الميلاد بين حوض النيل وبين جنوب نيجيريا . وتستمر التأثيرات المصرية حتى العهد القبطى التى تظهر آثارها واضحة جلية فى منتجات الفترة الفنية الثانية لبنين ، وهى التى تسمى « فن بنين » فقد لاحظت هيفل من الدراسة المقارنة كيف تتشابه اتجاهات القوالب والرسومات بين الفن القبطى الذى بلغ أوجه فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين وبين فن بنين ، وتقترح هيفل أن يكون الاتصال بين النيل وغرب أفريقيا قد تم عن طريق حفرة النحاس فى جنوب دارفور إلى تشاد إلى النيجر الأدنى . وتقول أيضا بإنه ربما كان هناك اتصال من مصر القبطية عن طريق آخر هو ليبيا —

مرزوق — كانو — نيجيريا . أما الفنون التشكيلية للنحاس فى ألاكان — أشانتى فتربطها هيفل بشمال غرب أفريقيا وحوض البحر المتوسط الغربى . وهذا النوع من الفنون يختلف عن فن البنين فى مرحلتيه ويتشابه مع مؤثرات من ايبريا وإيطاليا وشمال أفريقيا عبر دروب الصحراء الكبرى إلى تمبكتو وحوض الفولتا الأوسط .

هكذا توضح لنا هذه الدراسة أهمية الأبحاث المستمرة فى جوانب عديدة من الحضارات الأفريقية الترابط والتأثير الذى يشير كله إلى ضرورة البحث عن أصول عدد كبير من المفردات الحضارية فى مصر وشمال أفريقيا.